وسواس صنع الإنسان

أثير إسحاق

إبهار
للنشر و التوزيع

وسواسٌ من الإنس

أثير إسحاق

مراجعة لغوية: محمد رشدي

إخراج داخلي: يوسف الفرماوي

تصميم الغلاف: نسمة محمد

الطبعة الأولى 2025

الترقيم الدولي (ISBN) 978-633-8266-20-6

جميع الحقوق محفوظة ©

أي اقتبـاس أو تقليـد أو إعادة طبـع أو نشـر دون موافقة
كتابيـة، يُعرِّض صاحبه للمساءَلة القانونية.
أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمـادة الـواردة في
الكتـاب فهي خاصـة بالكـاتب فقط لا غير.

+966 59 518 8273

Info@ebharbook.com

www.Ebharbook.com

C1 Office - NO. 4915 - Ishaq Ibn Suleiman St. - (Al-Suwaidi) District - Riyadh - Saudi Arabia.

مقدمة

خذ معطفك وشعلتك، فالبرد قارس والظُّلمة حالكة، وبمجرد أن يستوعب إدراكك هذه الأحرف، أنت وتفكيرك ومشاعرك رهنٌ لكلماتنا التي ستروَى هُنا. وكتغييرٍ جذريٍّ بدأنا من النِّهاية نعتذر مقدمًا لإرباكِك وبعثرة أفكارك وسلبك من الوجود، ولكن لا تنسَ بأنَّك مَن قرّر الغوص والعبث في حياتنا.

لا وقت للحديث فبانتظارك رحلةٌ لا بداية لها ولا نهاية، ولتعلم أنَّ كلَّ ما تحتاج إلى معرفته شيءٌ واحدٌ.. أنَّ النِّهاية سيِّئةٌ، شئنا أم أبينا، فالخير لا ينتصر دائمًا، والجريمة الكاملة تكمن في اعتقاد الخير أنَّه انتصر.

جمال حَنبعل

ابتسامةٌ خفيفةٌ نمث على شفتي جمال بينما أنهى ابنه شهاب قراءة قصّة مصوّرة. الصغير ذو العشرة أعوام كان يطمح لمديح والده، لكنه اكتفى بشعورٍ غامض من السعادة، خاصةً بعدما انتهت الحكاية نهاية سعيدة بعودة هانسل وغريتل إلى منزلهما سالمين.

رفع صوته بطفوليةٍ:

- بابا، هل تسمعني؟

كان والده سارحًا في قطعة كعك تيبّست على الطاولة. بدا وكأنّه يفكّر فيها مليًا، متسائلًا إن كان قد فات الأوان لأكلها.

- لست بحاجة للصراخ، بنيّ

قالها الوالد بصوتٍ رفيع.

- لكنّك كنتَ صامتًا لوقتٍ طويل!

ابتسم جمال وربّت على رأس ابنه ليزيل ملامح العبوس عنه:

- أنا أسمعك دائمًا، ولكن أخبرني، ماذا تعلّمتم من القصّة؟

أجاب شهاب بحماس:

- يجب أن نحذر من التجوّل بمفردنا بدون وجود شخصٍ بالغ!

- أحسنتَ!

ثم التفت لابنته نجم التي كانت تنتظر أن تحملها ذراعيه كعادته قبل النوم. قهقهت بسعادة حين رفعها وقال:

- وماذا تعلّمتِ أنتِ؟

نظرت لأخيها الذي سار خلفهم يصعد درجات السُلم، وأمسكت بأصابعها الصغيرة وبدأت بالعد

بدأت تعدُ بأصابعها الصغيرة:

- الكذب سيّئ.. والساحرات يعشن في منازل الحلوى.. وأنا قرأتُ القصة مع أخي بدون أخطاء!

قهقه شهاب من مفرداتها الغريبة، بينما علّق جمال مجاريًا لها:

- لنكتفي بالكذب، فهو أهم درس.

خلف هذا المشهد المليء بالضحك، كان هناك ما يخفيه جمال. جلس على الأريكة يتظاهر بالاسترخاء، لكنه كان يتذكّر اليوم الصعب حين اكتشف أن طفليه خرجا وحدهما من المنزل، غير مدركَين لخطرٍ يحدق بهم: مجرمٌ خطيرٌ يخطف الأطفال، سبق أن أخذ منهما أصغر فردٍ في العائلة.. «نور».

حين وضع ابنته في سريرها، ثم أسقط بصره على وجهها حينما لم يسمع ردّها ليجدها تقاوم النوم ككل ليلةٍ، حدّق بها وعيناه تحملان ذات النظرة وهو يحمل قطعة البسكويت، يتأمّل حالها كطفلةٍ هشّةٍ وضعيفةٍ ليس بيدها أيّ حيلةٍ.

تساءلت الصغيرة بفرك عينَيها:

- متى سيعود نور؟

تنهّد جمال وأجاب بصوتٍ خافت:

- نور ذهب إلى الأعلى، حيث النجوم.. وهو مع ماما الآن.

بدأ الأب متماسكًا، لكن عينيه حملتا بقايا ألَم؛ لم يُشفَ منه بعد.

أكمل شهاب وهو يتذكر سبب توبيخ والدهم لهم، فهو خرج من المنزل مع شقيقته من دون إذن بوجود مجرم طليق يخطف الأطفال في المحافظة، وسبق أن عانت أسرتهم الأمرين حين فقدو أصغر فرد لهذا المجرم.

همس شهاب بتردد واضح

- هل أنت غاضب لأنّنا غادرنا من دون إذنٍ؟

أجاب الصّغير بعبوسٍ، وتجمّعت الدموع بأطراف عينيه، حين تذكّر كم كان والدهم خائفًا عليهم، عندما وجدهم يتجوّلون بمفردهم.

جلس الأب على طرف السّرير، وحاول تبسيط الأمور قَدر المستطاع للفتى الصغير.

- لا أريدك أن تحزنَ يا شِهاب، ولكنّني أريد منك التصرُّف كفتى عاقلٍ، هل كان الخروج من المنزل من دون إذنٍ خيارًا صحيحًا؟

هزّ شهاب رأسه بالنّفي لتسقط تلك الدمعة، ومدّ والده يده ليمسحها بطرف إصبعه.

- أحيانًا أتمنّى يا شهاب أن أحملَك في قلبي أنت وأختك، حتّى أستطيع حمايتك من العالم ومن وحشته وعتمته، أن أخبئك بكلّ مرّةٍ يحيطكم خطرٌ أو أيّ أمرٍ لا يَسرُّ، أنتما عالمي، أنتما حياتي ومماتي

والغاية العظمى من وجودي، ولن أسامحَ نفسي أبدًا إن حدث لكما أيّ شيءٍ، تذكّرْ دائمًا أنّني أحبّكما بكلّ قلبي.

أنهَى كلامه، ومسح على رأس الصّغير حين اتسعت ابتسامته برضى.

في تلك الليلة، أغلق جمال باب غرفة أبنائه بعد أن قبّلهم، متمنيًا لهم نومًا هنيئًا. عاد إلى غرفة المعيشة وفتح كتابًا يحاول قراءته، لكن صوت طرقٍ على الباب أوقفه فجأة.

كان الوقت متأخرًا، ولم يكن معتادًا على استقبال الزوار في مثل هذه الساعة. اتّجه نحو الباب بحذر، ليلمح من النافذة أضواء مشاعل وتحركات غريبة. فتح الباب ببطء ليجد تجمهرًا من أهل القرية بانتظاره.

وقف رجال الشرطة في المقدمة، وأحدهم صاح بصوتٍ عالٍ:

- جمال! أخرج من المنزل ببطء، وارفع يديك!

أدرك حينها أنّها النّهاية، رجال الشرطة أشهروا أسلحتهم في وجهه وهم يراقبونه يغادر المنزل ببطءٍ لتسليم نفسه، وامتثل لأوامرهم بصمتٍ، كان سارحًا بشكلٍ عجيبٍ في نقطةٍ مبهَمةٍ بينما تنهال عليه الشتائم من الجميع، رجالًا ونساءً، كبارًا وصغارًا.

- أنت يا جمال!

كان ينظر لهم بصمتٍ ونظراتٍ خاليةٍ تمامًا. لم يكن بحاجة إلى تفسير. كان يعرف أن سِرّه قد انكشف. نظراته المتجمدة لم تُظهر أي مقاومة، بل بدا مستسلمًا لواقعٍ لا مفرّ منه.

أحذيةٌ متطايرةٌ تهاوث عليه من جميع الاتجاهات.

انهمرت الشتائم عليه من الجميع، رجالًا ونساءً، بينما أخرج رجال الشرطة أكياسًا مغلّفة بالدماء من قبو منزله. ارتفعت أصوات البكاء والهتافات الغاضبة، وبدأ الناس يرشقونه بالأحذية.

- كيف لك أن تفعل هذا بأطفالنا؟!

لم يجبهم، وقف جمال بلا حراك، عيناه مفرغتان من الحياة، إلى أن رأى رجال الشرطة يقتادون طفلَيه بعيدًا، عندها فقط، كسر صمته بكلمات خرجت من رحم الحب القاتل، والخوف، والوحش الذي عاش في داخله:

- ليتني أكلتهم حين أتيحت لي الفرصة.

بَلغت الحد الائتماني!

سامي مُستلقٍ على سريره، عيناه مُغمضتان، ابتسامة هادئة ترتسم على وجهه الذي أنهكه التعب. أخيرًا، بعد شهورٍ من السّهر والإرهاق والعمل الجاد، يستسلم للنوم الذي طالما حرَم نفسه منه، لكن هذه المرة النوم مختلف، وثقيلٌ يكاد يجره للعدم، ثقيل كقطرة عسل سقطت فوق جناح نحلة وهوت بها للقاع. شريط من الصور يمرُّ أمام عينيه، متداخلًا، مُشوَّشًا، كفيلم قديم يعرض على شاشة متصدعة. صوت صفير حاد يرتفع وينخفض في أذنيه، يُشبه صوت سيارة الإسعاف. يشعر ببرودة غريبة تَسري في أطرافه، وبثقل يُغطي جسده؛ كأنه مُغطّى بطبقات من الرصاص، وهو يسترجع صُوَرًا حُفرت في مخيلته.

سامي الشاب الطموح، جلس في قاعة المحاضرات الواسعة، يُحيط به زملاؤه من شتّى أنحاء العالم، أما هو؛ فعيناه تلمعان بالذكاء والفضول. طالما حلم بمستقبلٍ مُشرق، يرى نفسه عالمًا مُبتكِرًا يُسهم في تقدم البشرية. طموحه لا يعرف حدودًا، كأنه يحاول التهام العالم بفمه. خطّط للدراسة في أرقى الجامعات، والمشاركة في أهم المؤتمرات العلمية، ونشر الأبحاث في أشهر المجلات العلمية. يُريد أن يُحقق كل شيء، وفي أسرع وقت ممكن.

وهو ذاته سامي المتنافس والمُتسابق المُندفع، يقود سيارته بسرعة جنونية على حلبة السباق. هدير المحركات يملأ أذنيه، وأصوات الجماهير تتلاشى في خلفية وعيه. يشعر باندفاع الأدرينالين في دمه، وبنشوة السرعة والخطر. ينطلق كالصاروخ،

يتجاوز مُنافسيه بمهارة وثقة. شغفه بالفورمولا يستحوذ عليه كليًا، يُشعل فيه نارًا لا تنطفئ. يُريد أن يُثبت نفسه كبطل، أن يُحقق الفوز مهما كلف الأمر.

روحه المنهَكة، عقله الساهر، وجسده الذي بالكاد يتماسك، جلس على مكتبه في غرفته الصغيرة. الكتب والأبحاث مُكدسة أمامه، جهازهُ اللوحي مفتوح على صفحة مُعقدة من المعادلات الرياضية. يُحاول التوفيق بين الدراسة والسباقات، بين العلم والشغف، لذا حله السريع ليستمتع بالأمرَين معًا؛ كان السهر!

يسهر يوميًا ليهتم بدراسته، ويحاول التعويض عن الوقت الذي قضاه يستمتع بحياته كشاب له هواية، وعلى الرغم من أنه ينهك نفسه بكل وضوح لكل مَن حوله، سامي لم يشتكِ قَط، بل كان يقابل الجميع باليوم التالي بطاقة وحماس أكبر من سابقه. أقسَم بعض أصدقائه أن الهالات السوداء التي تُحيط بعينيه أصبحت شبيهة بتلك التي تحيط بزُحل، وجسده يُعاني من الإرهاق وقِلة النوم. صوت قلق أصدقائه يهمس في أذنيه: «سامي، أنت تدفع نفسك إلى الهاوية! أبطئ السرعة قليلًا واعتنِ بنفسك!». لكن صوت قلقهم يضيع في صخب إرادته التي لا تُقهر، وفي ضغط الطموح الذي يُثقل كاهله.

لم يهمل نفسه قَط، حسن المظهر واعٍ ومهذب، نظيف الملبس، طيب الرائحة والخُلق، كان يؤمن أن العمل الجاد، والتضحية سيقودانه نحو النجاح الكبير؛ لذلك لم يشتكِ ولم يتذمر، ويبدأ يومه بجد واجتهاد، يقضي ساعات طويلة في المكتبة أو في غرفته

الصغيرة بعد محاضرة امتدت لساعات، ثم يغادر لممارسة هوايته مع أصدقائه.. أصدقاؤه الذين تخبطوا كثيرًا ليحافظوا على سجل درجات مرتفع مثله، وكثيرًا ما تساءلوا «كيف يفعلها سامي؟».

يتذكر ذلك اليوم في المكتبة، جلس على طاولة خشبية قديمة، يُحيط به الهدوء وروائح الكتب العتيقة. يحاول قراءة كتاب عن ميكانيكا السيارات، لكن النُّعاس يغلق عينيه رغما عنه. يغفو فوق الكتاب المفتوح، ليجد نفسه انتقل إلى عالمٍ سريالي. حُلم؟ تذكر مرور تلك الفكرة بعقله، وهو يقف في بحيرةٍ ساكنة، تعكس على سطحها سماءً رمادية مُلبدة بالغيوم. غابةٌ كثيفة تُصدر أشجارها أصواتًا غريبة مُزعجة، محاطة بنبات شُقار الظل، وضبابٌ كثيف يُحيط به من كل جانب، يُخفي العالم عن عينيه، ويُشعره بالضياع والوحدة. يشعر بالخوف والتوتُّر، كأنه تائه في متاهة لا مخرج منها. هو في حلم بالتأكيد.

كيانٌ غامض تشكل من بين الأشجار، وجهه مُغطّى بظلال داكنة، وصوته عميق كهدير الرعد، وعينان حادتان تنظران إليه بهدوء وغضب في الوقت ذاته!

- التوازن يا سامي، هو سِرُّ الاستمرار. فطاقتك البشرية محدودة، وأنت تُبدِّدها بلا حساب

كلمات الكيان تتردد في أذنيه كصدى بعيد، تُثير فيه الخوف والقلق. يحاول سامي التحدث، طرح الأسئلة، لكن لسانه يُصبح ثقيلًا كأنه مُعلق في حلقه. يشعر بالاختناق، يُريد الهروب من هذا المكان المُخيف، من هذا الكيان الذي يُذكِّره بمحدودية طاقته وضعف

جسده. لكنّه عاجز عن الحركة، كأنه مُقيّد بسلاسل غير مرئية.

ابتسم الكيان ابتسامة باهتةً لا تكاد تُرى، وتراجع مختفيًا بالظلام، بينما تردد صدى صوته:

- أنا رمزٌ لحكمةٍ ما داخلك، تلك الحكمة التي تدرك أن التوازن جزء لا يتجزأ من النجاح الحقيقي، إذا أردت أن تبقى متفوقًا لتحقق أحلامك، عليك أن توازن بين المرح والجد، بين الجوع والشبع، بين النوم واليقظة.. وإن لم تفعل فسينتهي رصيدك من أحدها، أنت يا سامي سلبتني حقًا من حقوقي، وأنا أكره أن تسلب حقوقي!

وصدقني إن وصلت لك..

***

بعد عدة أشهر وقف سامي على منصة التتويج، يرتدي بدلة السباق البيضاء، ويحمل كأس الفوز بيده. أضواء الكاميرات تُسلّط عليه، وهمسات الإعجاب تُحيط به من كل جانب. يشعر بالفخر والسعادة، لقد حقق حلمه ورفع اسم وطنه عاليًا. لكن سعادة النصر مُمزوجةٌ بإرهاقٍ شديد، كأن هذا النصر قد استنزف آخر قطرة من طاقة حياته. يشعر بدوار وغثيان، ورغبة شديدة في النوم. يُريد أن يُغمض عينيه وينسى كل شيء، لكن الضوضاء من حوله تمنعه من الاستسلام للراحة، لذا استمر في دفع نفسه نحو ما ظن أنه أفق النجاح. يعود صوت الكيان الخافت في داخله يُحذره من مغبة الإفراط في استنزاف طاقته، يُذكره بكلمات الكيان الغامض في الحلم. يحاول تجاهل هذا الصوت، لكنّه يُلاحقه كظله، يُشعره بالقلق والخوف، وكآن ذلك الصوت يقترب منه في كل مرّة.

يتذكر حين لم يتبقَّ له سوى عدة اختبارات نهائية، وقف أمام مرآة غرفته، ينظر إلى انعكاس صورته في المرآة، يرى شابًا نحيفًا، وجهه شاحب، وعيناه غائرتان تُشبه عينَي شخصٍ لم ينَم لأيام. يشعر بإرهاق شديد، جسده يُطالب بالراحة، لكن عقله لا يرحمه. يتوق إلى الاسترخاء، لكنه لا يستطيع التوقُّف. يشعر كأنه آلة صُمّمت للإنتاج فقط، من دون توقف أو راحة. يُحاول إقناع نفسه بأن هذا التعب مؤقت، وأنه سيرتاح عمّا قريب؛ بعد اختباراته، بعد أن يحصل على نتائج مُرضية بعد أشهر من الدراسة بجد.

وبعد أيام من التدريبات المتواصلة لساعات طويلة وتضحيات مستمرة وصل سامي إلى النهاية، وكان قد حصل على كل شيء حلم به وأراده، وقف على المنصة وهو يحمل الكأس الذي فاز به، ويستشعر بعمق لذّة ذلك الشعور ويبتسم بصدق لكاميرات الإعلام التي أحاطت النجم الشاب من كل الجهات، وأجابهم بكل فخر أنه سعى لهذه اللحظة طوال حياته، وعمل بجد من أجلها، وأنه يشكر أسرته الذين كانوا الداعم الأول له، ثم يشكر نفسه على إصراره وعزيمته، كان فخورًا جدًّا بنفسه وبما حققه. لكنه لم يكن على دراية بالثمن الذي دفعه خلال هذا العام المرهِق.

بالأيام التالية لنهاية البطولة، أنهى عقد إيجار منزله، وأتم حجوزاته للعودة لموطنه ومعه إنجازات تكاد تكون أثقل من أن يحملها، عاد إلى منزله وبحماس بدأ يجمع مقتنياته بشكل نهائي، جهّز حقائبه قرب الباب وألقى جسده على السرير الأبيض يتأمل السقف ولا تكاد الابتسامة تغادر شفتيه.

«وأخيرًا»

قال لنفسه، شهور طويلة من السّهر والتعب آتت ثمارها، كان يشعر بالارتياح وأغمض عينيه، ظنًا منه أنه سيحصل على الراحة التي يستحقها بعد هذا العام المرهق. لكن الأقدار كانت تحمل مفاجأة أخرى له، بعد أن أغلق عينيه ليدخل في نوم هادئ، انتابته حالة غريبة وغير متوقعة، شعر بنفسه يطفو!

بل يتهاوى لمكان سحيق وكأنه يغرق ببطء شديد من دون إرادته.

البحيرة الهادئة، الضباب الكثيف، والكيان الغامض يُراقب سامي وهو مُستلقٍ على قارب صغير، يطفو ببطء في وسط البحيرة الكئيبة، وجهه شاحب، القارب يتحرك ببطء الى وجهة مجهولة في الضباب، والأشجار الشاهقة تميل فوق رأسه وتكاد تخنقه، وتتهاوى منها بتلات شقار الظل، ومن تحته تموجات المياه، كأنه يُبحر نحو عالم آخر. وذلك الكيان الغريب بدأ يتشكل في الفراغ المحيط بسامي.

- لقد حذرتك يا سامي، لكنك لم تُنصت، حين يولد الإنسان.. يملك رصيدًا عادلًا ومتكافئًا من النوم واليقظة، وحين تفرط في استخدام أحدها سينتهي رصيدك، ويتبقى لك النصف الآخر، معظم البشر يجبرون على الموازنة بينها بأساليب خفية، فالمصابون بالأرق أشخاص أفرطوا بالنوم في مرحلة ما من حياتهم والعكس صحيح، نستخدم هذه الأساليب لنعيد لهم التوازن حتى يستطيعوا إكمال حياتهم.

استمع سامي للكيان وهو يراه بخفوت يحيطه ويحاصره وصوته

يتردد في الفراغ:

- انتهى رصيدك من اليقظة يا سامي، وبقي لك حقك من النوم.

تلاشَى الكيان، ولم يبقَ سوى ذلك القارب في وسط المجهول. سامي نائِم، ولكنه لا يستيقظ. غيبوبةٌ عميقة تُسيطر عليه، وتُعلن نهاية رحلته. جسده الذي كان مليئًا بالحياة والطاقة، أصبح الآن ساكنًا باردًا، كأنه تمثال من الشمع على سرير المَشفَى. وجهه الذي كان يُشع بالذكاء والطموح، أصبح الآن خاليًا من التعابير، كأنه قناع فارغ.

الضحية الأخيرة

حين وصلنا لموقع البلاغ.. وجدنا الشّاب ملقًى على الأرض، على بُعد مسافةٍ من السّيارة، ينزف بشدّةٍ وقد شحب لونه، ولكن بمعجزةٍ ما، لا يزال على قيد الحياة، وهناك فتاةٌ أُخرى مطعونةٌ داخل السّيارة، في مقعد السّائق، في حالةٍ حرجةٍ، وبحاجةٍ إلى العناية الطبيّة العاجلة.

تمّ إسعافهما ونقلهما إلى المشفى. كُثّفت العناية والحراسة المشدّدة عليهما للشّاب والفتاة، فهما آخرُ مَن رأى القاتل.

يبدو أنّ الشّابّ شاهد المجرم يعتدي على الفتاة، اتصل بالشُّرطة ليبلغهم عن الحادث. ربما اقترب لينقذها من بين يديه. أدرك القاتل ضَعف موقفه، فبادره بطعنة، تفاجأ بمقاومة الشّاب له ونجاحه في الهرب، لحق به المجرم، ولكن لسببٍ ما، توقّف فجأةً ولاذ بالفرار قبل وصولنا.

كاد أن يفتكَ بهما! لينضموا لقائمة ضحاياه الاثنا عشر.

عددٌ كبيرٌ كهذا ولم ننجح بالقبض عليه حتّى الآن!

هذا القاتل ذكيٌ جدًا، ينجح في إخفاء أثره كلّ مرّة، وصفوه بالشّيطان، وبالوباء، وبالسّفاح الشّبح. كم هو لعنة في هذه المدينة!

وضعنا العديد من القواعد والأنظمة بسببه، يحرم على أيّ شخصٍ أو شخصين التجوّل بمفردهما من بعد الساعة الخامسة مساءً، ثلاثة أشخاصٍ هو الحدّ الأدنى، وعلى الرغم من ذلك استمرّتْ جرائمه.

لم نجد عليه أيّ سبيلٍ.

هذه المرّة أخطأ، بل فاجأهُ ظهور هذا الشّاب الشُجاع، الذي عرقل جريمته

واتصل بالنّجدة، وحاول إنقاذ الفتاة؛ لذا أملنا الوحيد بالقبض عليه يكمن في إنقاذهما، فهذا المجرم حين ابتدأ سلسلة جرائمه، صرح بأنه سيقضي على خمسة عشر شخصًا بالمجمل، وتحدنا أن نمسك به.

موت الشاب والفتاة يعني أنّه سيتبقى لديه ضحيّةً واحدةً ليتم تهديده، وبعدها سيختفي للأبد، وقد لا تتسنى لنا حينها أيّ فرصةٍ للقبض عليه.

الحراسة حول المشفى مشدّدةً. للشاب والفتاة، لعلّهما يفيقان، ونأخذ منهما معلومات توصلنا إلى المجرم.

بقيتُ أنا أدور حول القسم في المشفى؛ خوفًا من عودة القاتل وتسلُّله لإنهاء حياتهما، على الرغم من تكتُّمنا تمامًا على نجاة الضحيّتين.

يفزّ جسدي وينتفضُ كلّ مرّةٍ يمرّ بجانبي شخصٌ، أو ألمح أحدًا يركض تجاه القسم ممرّضًا كان، أو طبيبًا، أو مريضًا، أو أيّ شخصٍ من العامّة.

بشرني الطّبيب أخيرًا عن وضع الشّاب الأخير، وأنّه نجى بأعجوبةٍ من تلك الطعنات.

- هل لي أن أعرفَ ما الذي حدث له بالضبط حضرة الضابط؟

سألني الطّبيب بشكٍّ، ما وضعني في حيرةٍ، فلا أريد كشف هويّة الشاب،

- هو محقّقٌ سريٌ، أُصيب في أثناء العمل على أحد القضايا، وأودّ أن تبقى مهمته وكذلك حالته قيد السريّة والكتمان.

هزّ الطّبيب رأسه.

- بالطبع.. كلُّ ما بالأمر أنّ الفضول أصابني، فالمريض في غرفة العناية ماهرٌ، أعرفه منذ المرحلة الجامعيّة، درسنا معًا، وتفاجأت برؤيته.

سألته مختصرًا الحديث قدر المستطاع

- هل سيكون بخيرٍ؟ وقادرًا على التحدُّث معنا؟

- حالته مستقرّةٌ الآن نوعا ما، الحمد لله، إصاباته لم تكن في مقتلٍ، بوسعكم التحدث قليلًا، وفي حدود الضرورة فقط.

وأضاف:

- حقيقة أقول لكم بشكلٍ صادمٍ إنّه محظوظٌ للغاية، فالسّكين لم تصبْ أيًّا من أعضائه المهمّة؛ لذا قد نجا، ولكنّه بحاجةٍ إلى العناية الفائقة، وسيبقى تحت الملاحظة لمدّةٍ، المهم أنّه سيعيش، وحين يستفيق سأحرص على أن تكونوا أوّل مَن يتحدّث له.

وبالفعل كما وعدني تحدّثنا له بعد عدّة أيامٍ، وعلى الرغم من أنّنا اعتقدنا أنّنا سنحصل على معلوماتٍ مهمّةٍ عن المجرم، إلا أنه كان واضحًا لي أنّ الناجي في حالةٍ من الذُّعر والخوف والتردُّد في كلّ ما

يقوله.

- هل رأيت وجهه؟

سألته، فهذا ما أردتُ معرفته قبل كلّ شيءٍ.

- لا، كان يرتدي قناعًا مثل الذي اشتهر به اللصوص في الأفلام.

- هل يمكنك أن تروِيَ ليَ ما حدث؟

- كنت أسير تلك الليلة باتجاه منزلي، عائدًا من المتجر بعد أن اشتريتُ وجباتٍ خفيفةً، لم تكن المسافة بعيدةً؛ لذا حرصت على الإسراع كيلا أقع في مشكلات بسبب تجوُّلي وحيدًا في الليل، لم يخطر لي أنّني قد ألتقي به، ولكن فجأةً رأيتُه؛ كان منحنيًا داخل السّيارة من النافذة، شكله مريب، وحركته كذلك، ولكن لم يدر بخلدي ما يبعث على القلق؛ ظننتُه يتحدّث للسّائق.. كلّما اقتربت منه، سمعت أنينًا خافتًا وكأنّها محاولةٌ ضعيفةٌ للصُّراخ بألمٍ، اقتربتُ بخطواتٍ سريعةٍ وأخرجتُ هاتفي متصلًا بالنجدة. يبدو حينها أنّه تنبّه لوجودي. أشار إليّ، والفزع بادٍ على وجهه، وقال: أرجوك ساعدني، ابنتي أصيبت بنوبةٍ وفقدتُ وعيها فجأةً!

- وهل ذهبت لمساعدته فورًا؟

- أجل، توجّهتُ نحوه وكانت يده داخل النافذة طوال الوقت فشعرت بشيءٍ غريبٍ.

حين وصلت لهما أخرج السّكين فجأةً وطلب منّي إغلاق الهاتف، لم أفعل. ألقيتُ بالهاتف داخل السّيارة من النافذة بسرعةٍ؛ لأضمن ألّا يصل له وأن يتمّ الاتصال، ويستمعَ مركز الاتصال لي طوال الوقت.

أدركتْ حينها أنّ الأوان قد فات، فقد رأيتُ الدّماء وجسد الفتاة داخل السّيارة. في تلك الأثناء قام بسحبي ووجّه نحوي طعنته الأولى.

- وهل لاحظتَ أيّ شيءٍ لافت عندما اقتربتَ منه؟ ماذا كان يرتدي؟ شكله العام، أيّ شيءٍ تميّزَ به، أي أمر غريب يمكن أن تذكره لنا عنه؟

سألته مجدّدا. هزّ رأسه بالنفي. وأضاف:

- لستُ متأكّدًا! فلم أشعر سوى بالطّعنة الأولى. قاومته بشدّةٍ على الرغم من خوفي. كنتُ أحاول خلع قناعه لأرى وجهه وحتّى بعد أن نجحت، لكمني وضرب جسدي نحو السّيارة حتّى كدتُ أفقدُ الوعي.. وحين شعرت بالطّعنة الثّانية والثّالثة.. ضعف جسدي..

قاطعته:

- لكنّك كنت تصرخ بمعلوماتٍ طوال مدّة الاتصال، ولم نفهم بعضًا ممّا قلت: «إنّه يطعنني، ساعدوني، يرتدي.. شيئًا أسودَ، وشيئًا ما على ذراعه ووجهه». ما الذي كان على ذراعه ووجهه؟

- لا أتذكّر تحديدًا، كنت أصرخ بمعلوماتٍ عنه طوال الوقت لأتأكّد من وصول صوتي لهاتفي، في حال لم أنجُ حتّى يُقبض عليه، أعتقد بأنّني قلت هناك وشمٌ على يديه، ولكني لا أتذكّر.

- لقد واصلت الصراخ.. «ساعدني» لمَن كنتَ تتحدّث؟

- لست متأكّدًا أيضًا أو أنّني كنت أهذي، ولكن.. ظهر شخصٌ آخر من ناحية الزّقاق وسأل ما الذي يحدث، وصرختُ: «ساعدني، ولكن

لم يأتِ أحدٌ؛ لذا لستُ متأكّدًا إن كان ذلك هلوسةً أم أنّ ذلك الشخص أدرك ما يحدث وهرب»!

شعرتُ بأنّه غفل عنّي لوهلةٍ، فقبضتُه ارتخت من على كتفي، دفعته وركضتُ بكلّ قوّتي خارج الحيّ باتجاه الشارع العام، وهذا ما أخبرتُ به رجال الشُرطة سابقًا.. حين هربتُ رأيتُه يجري خلفي قليلًا لكنّه توقّف فجأةً.. راقبني وأنا أركض للأمام ثمّ انحرف إلى منطقةٍ بين المنازل، تنبّهتُ حينها لوجود الكاميرات في الشارع الرئيسيّ؛ لذا بقيت في مكاني متأكدًا بأنّه لن يخاطرَ بالعودة لي.. فقدتُ الوعي، ولكنّني سمعت إنذار سيّارة الشُرطة وعلمتُ أنّني سأنجو.

حاولتُ حثّ ذاكرته على محاولة تذكُّر شيءٍ من ملامحه، عندما خلعتُ قناعه هل رأيت أيّ شيءٍ به بوضوحٍ؟ هل تستطيع وصف هيئته أو أي تفصيلٍ تذكره عنه؟

تشتّت قليلًا مغمضًا عينيه وكأنّه يتذكّر مرارة الموقف وارتجف وهو يقول:

- لديه عينان شرّيرتان..

- هل بدا غاضبًا؟ أتقصد طريقة نظرته؟

- لا بل أقصد عينيه! بدا كوحشٍ يفتعل الشرّ بلا سببٍ، بدا لي صوته كصوت أبٍ قلقٍ على ابنته ولهذا ساعدته، صوته لم يوافق تلك النظرة الشيطانيّة بعينيه. يفترض أن أعلمَ منذ اقتربت، ولكنّني أحمق لأنّني لم أرد الحكم عليه من شكله. ليتني فعلتُ وهربتُ، لا أستطيع وصفه فلم أره بوضوحٍ، ولكنّي لن أنسى عينيه ما حييتُ.

- أي شيءٍ آخر؟

حتثته ليكمل وترّدد قبل أن يقول:

- لستُ واثقًا من رغبتي بالتحدُّث أكثر ممّا فعلت، لا أريد أن أموت بسبب ثرثرتي هذه لكم. بالكاد نجوتُ، ولو علم المجرم أنّني على قيد الحياة وأحاول تمكينكم منه، سيأتي لأجلي.

قلتُ مطمئنًا له:

- لا تقلق، أنت بأمانٍ هنا، بسببك أُنقذنا الفتاة، ما زالت بغيبوبةٍ، ولكنّها على قيد الحياة وهذا بفضل الله ثم بفضلك، اطمئن. لن نفرّطَ بحمايتك.

- حقًّا؟

بدتْ على ملامح وجهه المفاجأة. لا أعتقد بأنّه ظنّ أنّ الفتاة سوف تنجو ولا ألومه، أو أنّه ليس واثقًا جدًّا من حمايتنا له.

- أجل، شجاعتُك أنقذتْ حياتك وحياتها، ما لا تعرفه عن هذا القاتل، هو أنّنا نحاول الإمساك به منذ أشهرٍ، هو من ذلك النوع الذي يستمدُّ شعوره بالسُلطة والقوّة من رؤية الخوف في أعين ضحاياه، كالحيوانِ البريِّ المفترسِ يشتمُّ رائحة الخوف، وينجذبُ لها ويتلذّذُ بتعذيب الضّحايا؛ حتّى يستمتع برؤيتهم يبدون خشيتهم منه قبل أن يفتكَ بهم.

وأضفت:

- ولكن شجاعتك ووقوفك في وجهه جعله يتشتّت ما بين رغبته

في الهجوم عليك، وإخضاعك لشعور الخوف، وما بين الهرب ولم ينتبه إلى كونه لم ينهِ ما بدأه بتلك الفتاة، وهناك احتمالٌ أيضًا أنّه رأى فرصةً أكبر بالقضاء على ذلك الشاب، الذي ظهر فجأةً خاصّةً وقد هرب بخوفٍ كما قلتُ، لذا لحق به وقتله، وجدناه قرب أحد المنازل، لم ينجُ، ولكنّك هنا أمام أعيننا، لن يصلَك من دون المرور علينا.

- انظر لي! أنا لستُ خائفًا، بل مرتعبًا، وكلُّ ما قلته للتوّ يعني أنّه سيعود للقضاء عليّ! أعتقد أنّني اكتفيتُ ولن أتحدّثَ أكثر من ذلك.

كنت أحاول طمأنته، ولكن يبدو أنّ الحوار أخذ منحى آخر:

- قلت لك .. اطمئن. هناك حارسٌ خارج غرفتك لحمايتك، والمشفى محاطٌ بالشُرطة، وطالما أنّ الفتاة نجتْ، وهو لا يدري، سنحرص على أن نستكملَ المعلومات منها لنقبض عليه، وبعد ذلك أعدك أنّك ستكون بأمانٍ.

شكرته على تعاونه، على الرغم من أنّني لم أحصل على الكثير منه، وأكدتُ له قبل أن أغادرَ أن هويّته سرٌّ حتّى عن الطبيب والممرّضين، ثمّ أكدتُ على كافّة القوّات حول المشفى، أن يرصدوا أيّ تحرُّكٍ مشتبهٍ به على مدار اليوم، وأجريتُ العديد من التحاليل الجنائيّة للدّماء في موقع الجريمة، وأيّ أثرٍ آخر يشير إلى الطرف الثالث في هذه المعادلة، على أمل أن نجدَ ما يقودنا إليه.

ولكن مُلابسات ما حدث جعلتني في حيرةٍ أكبر كلّما اكتشفتُ أمرًا جديدًا، فمثلًا ما الذي أخذه القاتل هذه المرّة؟

ولِمَ لم يترك شيئًا في مسرح جريمته كالمزّات السّابقة لنتأكّد من كونه هو القاتل ذاته! هل هذه جريمةٌ لقاتلٍ جديدٍ يقلّده؟ أم أنّها جريمة لشخصٍ آخر يستغلُّ الجرائم الشّنيعة هذه ليغطي بها انتقامًا شخصيًا! وهل يعقل إن كان هو قاتلهم المنشود، أن يكونَ مختبئًا الآن ومتواريًا عن الأنظار؛ لأنّه أخطا بشكلٍ فادحٍ؟

هل هناك احتمالٌ بأنّه يعلم أنّ ضحاياه قد نجوا من هجومه الأخير؟

وهذا ما حدث بالفعل، ففي حين أنّ الفتاة لم تستيقظْ على الرغم من مرور أسبوعين من الحادثة، تحسّنت حالة الشّاب وعاد قادرًا على المشي، ومزاولة حياته بشكلٍ طبيعيٍ، وما زال أمر نجاته سرًا، كما أنّني قلّلت من حضور القوّات الأمنيّة السريّة كيلا يَلفتوا الانتباه أكثر من اللازم، خصوصًا والأطباء في المشفى بدأوا بالشكّ من هويّة بعض المرضى الموجودين كلّ يومٍ بلا سببٍ يُذكر.

جرت الرياح بما لا تشتهي سفينتا. صدمنا بخبر من المشفى بأنّ الفتاة فارقت الحياة! وهذا يعني أنّ كلّ ما قمنا به قد ذهب سدى.

اعتقدوا أنّها توفيّت؛ لأنّ جسدها لم يتماثلْ للشّفاء، ولم تنجُ من الطّعنات التي وُجّهَتْ لها، فقد أصابها في مواضع خطيرة.

وعلى الرغم من الإحباط الذي استولى علينا، إلا إننا وجدنا ضّالتنا التي بحثنا عنها، المتمثلة في الدليل القاطع على أن مجرِمنا هذا هو الشخص ذاته، وليتنا لم نجد الدليل، فهذه هزيمةٌ نكراء واتضح بأنّه كان يسبقنا بخطواتٍ لا حصر لها.

لا نعلم كيف وصل لها! واستطاع أن ينهي حياتها بعد أن علّقنا كلّ أمالنا عليها، وترك خصلة شعرٍ مجدولةٍ فوق جسدِها اتضح أنّها لضحيّته السّابقة، كما يفعلُ دائمًا يأخذ شيئًا من الضّحية، ليتركه على جسد الضّحية القادمة، كاميرات المراقبة أظهرتْ طبيبًا يدخل ويغادر غرفتها بذات الوقت المقدّر للوفاة، ولكن هويته مجهولةٌ ونجح بإخفاء وجهه عن كاميرات المراقبة وكأنّه يعرف كلّ شيءٍ.

يجب أن ننظرَ بأمر جميع الأطبّاء، خصوصًا الذي باشر حالتها، فقد كان مريبًا منذ البداية، توجّه رجالي فورًا بذات اللّحظة ممتثلين لما قلتُ بينما بقي مساعدي بجانبي.

أخذتُ الرسالة التي تركها في ظرفٍ مختومٍ باسمي فقط، مع تحذيرٍ بعدم فتحه من قبل أيّ شخصٍ آخر، وأبقيتُها مطويةً في جيب سترتي حتّى وقتٍ آخر، واجتاحني شعورٌ ثقيلٌ جدًا وأنا أفكّر بمدى إخفاقي، ومدى خوفي وحيرتي، لا أستطيع الوثوق بأحدٍ، كلُّ شخصٍ أنظر له سأرى بعينيه العدو.

أعادني للواقع ما قاله مساعدي فجأةً حين لاحظ شرودي لوقتٍ طويلٍ، لا يبدو أنّه أخذ شيئًا من جسد هذه الفتاة، أصابعها كاملةٌ، وشعرها بحالةٍ جيدةٍ تبدو بخيرٍ عدا أنّه وصل لها أخيرًا.. وإن كان يعلم بأمر نجاتها فبالتأكيد يعلم بأمر نجاة الشاب!

الشاب!

تذكّرناه!

في تلك اللحظات تراكضت خطواتنا نحو غرفته في آخر الممرّ،

والخوف يقرع على قلوبنا، دعونا الله في تلك اللحظات البسيطة ألّا نجده قد فارق الحياة، ألّا يكون قد وصل له، لم أكن أؤمن بالربّ في حياتي أبدًا، ولكن في تلك اللّحظة خرجت تلك الدعوة من أعماقي أملًا بتحقُّقها.

وبالفعل..

بمجرّد اندفاعنا لغرفته، أفزعناه وهو يجمع أغراضه البسيطة مستعدًا للمغادرة، والتفت لنا بفزعٍ..

- ما الذى يحدث؟ سأل بريبةٍ.

- إلى أين؟ سألته بذات الرّيبة من مغادرته المفاجئة.

- أخبرني الطّبيب أنّني أستطيعُ المغادرة اليوم، لأنّ حالتي تحسّنت كثيرًا.

- يا للأسف لا يمكنك المغادرة، ولا يمكننا الوثوق بالطّبيب الآن فالوضع خطرٌ، الفتاة قد قُتلت، لقد وصل لها وأنهى حياتها؛ لذا لن ندعَك تغيب عن أنظارنا..

حملق الشابُ بنا بعدم استيعابٍ؛ لذا باشرتُ بسؤاله:

- نعم، في اليوم الذي استيقظتَ به، هل تحدّث لك الطّبيب قبل تحدُّثنا معك؟

- آه، لا.. ربّما، أتذكّر حديثنا عندما استيقظتُ، ولكن لستُ متأكّدًا متى حدث ذلك، كنت تحت التخدير.. تبين لنا أنّ شكوكنا في محلها.

سألته:

- هل دخل عليك أيُّ شخصٍ غريبٍ اليوم أو بالأمس؟

أجاب بارتباكٍ وذهول:

- لا، فقط الطبيب وممرضة!

- أتذكر في أثناء هجومه عليك، هل حدث شيءٌ غريبٌ؟ هل حاول مثلًا قطع أصابعك؟ أو أخذ أي شيءٍ منك؟

أجاب الشّاب بملامح معقودةٍ:

- لا، ليس على حدّ ذاكرتي! لمَ كلُّ هذه الأسئلة؟ وما الذي حدث للفتاة؟ أنا لن أبقى هنا، فمن الواضح أنّني لن أكون بأمانٍ أيضًا، ولا يمكنني الوثوق بكم ولن أتحدّثَ لأيٍّ منكم بالمزيد.

غادر الشابُّ على عجلةٍ من أمره من بيننا، ولأوّل مرّةٍ، رأيت الرُّقعة الناقصة في رأسه من الخلف في أثناء خروجه، ولم يوقفه أحدٌ منّا؛ لأنّنا علمنا أن القاتل سيعود ليُجهز عليه، وأنّه وضع نفسه في موضع الطُّعم من دون أن يشعرَ.

ومن جانبٍ آخر..

الشُّبهات كلُّها تدور حول الطّبيب الذي أبدى اهتمامًا شديدًا بالناجين، كما أنّه لم يكن يعمل يوم الحادثة، ولم يستلم أمر العناية بهم سوى باليوم التالي.

كل الشُّكوك تدور حوله، ولكن الأدلّة ضعيفةٌ، وفرصتنا بالقبض عليه تضاءلت لحدٍّ كبيرٍ، فالشّابُّ لم يكن مفيدًا لنا بقدر ما اعتقدنا بالبداية. كان أملنا كاملًا بالفتاة، وهو علم ذلك! نعم. هذا القاتل علم

تحديدًا ما يجب عليه فعله؛ لذا ركّز اهتمامه عليها ولم يتعبْ نفسه حتّى بالالتفات للشّاب.

وعلى الرغم من أنّنا وضعناه سرًّا تحت المراقبة لعدّة أيامٍ، وقدّمنا له العديد من المحفّزات فقط؛ ليوافق على الجلوس مع رسامٍ ليصف له شكل عينيه وهيئته كما يذكرها على الأقل، بالمقابل لهويةٍ سريةٍ جديدةٍ، وحماية الشّهود، ولكنّه ما زال يرفض التحدّث والإدلاء بأيّ شيءٍ.

ظلّ يغادر منزله أمام عيني وكأنّه يخشى ظله، إنه في حالة رعبٍ دائمٍ استمرّتْ لشهرٍ على هذا الحال، ثمّ تلاه شهر آخر وآخر بعد، حتى توقّف التمويل لهذه القضيّة، وبدأ الجميع يرى أنّه من الأفضل صرف النظر عنها، طالما أنّ القاتل حصل على ما يريد وأجهز على ضحاياه باستثناء واحدٍ يعتبرونه ميتًا بالأصل، فحياة الخوف تلك لا تعد حياةً.

لكنّني لم أفقد الأمل به، وما زلتُ أؤمن أنّ القاتل سيأتي من أجله يومًا، وسأكون بانتظاره.

ركنتُ سيّارتي أمام منزل الشابّ ككلّ ليلةٍ، وبقيتُ أحدّق باتجاهه على أمل أن أرصدَ أيّ تحرّكٍ غريبٍ، وحين غلبني التعبُ والشكُّ واليأس، تذكّرتُ أمر الرسالة وأخرجتُها من جيب سترتي، وأخذتُ أنظر لها متذكرًا أنّني أقسمتُ على ألّا أدعه يحقّق مراده.

تنهّدتُ ونظرتُ لها بثقلٍ، وشعرت بِنغزاتٍ قويةٍ في قلبي وكأنه يخشى ثُقل ما بها، ولكنّني فتحتُها على أيّة حالٍ لقراءتها للمرّة المئة..

لقد عكّرتْ مزاجي بتدخُّلاتك الدّائمة ومحاولاتك لإفساد خطّتي، لأكون صادقًا كنت أعتقد أن الأمر ممتعٌ فيما مضى، ولكنّه أصبح مُملًا، فما أنت إلا أحمق لن يفلحَ في القبض عليّ، انتابك الغرور وحلّقت قريبًا من الشّمس بمحاولتك لفهمي وفهم دوافعي..

لا بدّ من أنّ الأمر يزعجك، أن أستمرّ في سلب الأرواح يومًا بعد يومٍ بسببك، ولأنّك بحثت فيما لا يعنيك، لا تعرف أين تتوقّف، وغباؤك هذا بات مصدر إزعاجٍ كبيرٍ لي.

لنواجه الأمر..

أنت تعلم ما أريدُ، وتعلم أنّك لن تنجحَ بالقبض عليّ، وأنا لن أتوقّفَ حتّى آخذ الحياة الأخيرة، خمسة عشر شخصًا مقابل حياتك! هذه هي المعادلة العادلة البسيطة.

ولكنّك رفضت عرضي وتحاول إفساد خططي؛ لذا إليك ما سيحدث: ستدعني وشأني منذ اليوم، إن وردك اتصالٌ عن جريمةٍ تشتبه بأنّني فاعلها، ستغضُّ الطّرف وتسير بالاتجاه الآخر، ولو رأيتني أمام عينيك ستبتسم بأدبٍ وتكمل سيرك، ستنسى أنّني وجدتُ وأعدك ألا أكونَ كابوسًا لك، سأدعك تعيش!

توقّف الآن، عذ لمنزلك واقضِ وقتًا مع أسرتك، وسأعُدُّها إشارةً لموافقتك على عرضي، وإن رفضت فلنقل فقط أنّني سأجهز على شاهدك، ثمّ عائلتك، ثمّ أعود من أجلك حين لا يتبقّى لديك شيءٌ، اقبل بعرضي وسأعفيك من الجحيم، فأنت لن تستطيعَ هزيمة الشّيطان، خلق من نارٍ وخلقت من طينٍ..

طرقٌ مفاجئٌ على نافذة السّيارة جعلني أنتفض في مكاني، وضربات قلبي تكاد تكون مسموعةً، وكلُّ قطرة دمٍ بجسدي توقّفت عن الحركة لثانيةٍ..

وقبل أن يدركَ عقلي من الطّارق، أشهرت سلاحي تجاه النافذة، للشّخص الذي رفع يديه وابتعد، حتّى استوعب عقلي مَن يكون وخفضت السّلاح، ثمّ أشرتُ له بالصُعود معي بعد أن تلفتُ حولنا لأتأكّد من خلوّ المكان، وسألته بمجرّد أن أغلقَ الباب خلفه:

- ما الذي تفعله في الخارج بهذا الوقت؟

- بوسعي سؤالك عن الأمر ذاته! ما الذي تفعله خارج منزلي بهذا الوقت؟

- مررت بالحيّ وفكّرتُ بالتوقُف هنا قليلًا.

- إذًا.. فأنت مررت بالحيّ طوال الأشهر الماضية؟ يا لها من مصادفةٍ!

لم تكن كذبتي مقنعةً واستطاع اكتشافها بسهولةٍ.

- أنظر.. أقدّر ما تفعله جدًا، ولست متأكدًا.. هل أنت هنا لحمايتي أم لماذا! ولكن أشكرك.. في البداية خلال الأشهر الماضية شككت بك، ولكن حين طال الأمر علمتُ بأنك لم تفقد الأمل بالقبض عليه، وصدّق أو لا تصدق.. استطعت أن أنامَ براحةٍ لبضع ساعاتٍ من الليل، قبل أن أستيقظَ بفزعٍ على ذكرى تلك الطّعنات، وأهرع لتفقُّد الأبواب والنوافذ، فأجدك في الخارج وأرتاح، وأقدّر ما تفعله خصوصًا وأنت تقضي الليالي بعيدًا عن أسرتك.

ما زلت أراقب ردود فعله وفزعه كلّما انعكس نور القمر على حركة الأشجار، وعينيه التي تدور حول محيط السّيارة بريبةٍ وتفقُّدٍ، لذا وافقتُ على الدُّخول إلى منزله وشعرتُ بالأسى لما آلت إليه حياته، ثمّ شعرتُ بالشفقة على حالي أيضًا.

- أصدقك قولًا.. لستُ متأكّدًا من سبب تواجدي، هنا أيضًا..

قلتُ بعد أن قدّمَ لي الشّاي وأشرتُ للرسالة المطويّة، ومزّرتُها له ليقرأها وشاهدتُ ملامحه تتغيّر بصدمةٍ وهو يقرأ محتواها.

أحيانًا أشعر بالذّنب لكوني السّبب فيما حدث بشكلٍ ما، وأنّ دماء ضحاياه على يدي وإن لم أقتلهم، أحيانًا أشعر أنّني آتٍ إلى هنا كلّ يومٍ حتى يقضي عليّ وليس من أجل القبض عليه، ولكن فات الأوان على اتخاذ هذا الخيار، وفات الأوان على التراجع، فلو جلستُ وتركتُه كما طلب، لن تهنأ لي حياةٌ وأنا أسمع بعدد ضحاياه يزداد يومًا بعد يومٍ، وصلت إلى طريقٍ مظلمٍ ومسدودٍ ومخيفٍ وليتني أعلم كيف أتصرّف بعد الآن».

- لا بدّ من أنّ أمر هذا القاتل يثقل كاهلك؟

- على الرغم من أنّني أتظاهر بالقوّة فإنّني خائفٌ، خائفٌ جدًا..

- حقًا؟!

سألني وأومأتُ.

- أجل، يراودني شعورٌ بأنّ ما فعله بي أسوأ ممّا حدث لضحاياه، لستُ ميّتًا ولستُ حيًا، ولا يمكن أن يعودَ أيّ شيءٍ لحاله السّابق.

- مثلي تمامًا.

قال وارتشف من الشَّاي لأفعل مثله

- والأسوأ أنّه دائمًا يسبقني بخطوةٍ، وأخشى أنّ أيّ خطوةٍ سأقوم باتخاذها سيكون عالقًا بها، أنا عالقٌ، هذا الحقير كالشّيطان فعلًا

قلتُ وأنا أقهقه على سوء الحال وقهقه مثلي مستندًا على الأريكة.

- ولم تتساءل يومًا كيف له أن يكونَ على اطلاعٍ دائمٍ بكلّ شيءٍ؟ مثلًا أن يكونَ موظّفًا في مركز الشُّرطة أيضًا؟

- مستحيلٌ، فقلّةٌ من المحقّقين ورجال الشُّرطة مَن يعلمون بأمر تفاصيل هذه القضيّة، وحتّى الآن لا أحد منهم يعلم أنّني ما زلتُ أعمل عليها.

- جيدًا!

قال وهو يتوجّه للمنضدة الجانبيّة ليجلب ظرفًا منها:

- لأنّني أريد أن أهديَك هذا.

- ما هذا؟

قلتُ وناولني الظّرف لأفتحه وحدّقتُ بمحتواه للحظاتٍ بلا فهمٍ وسألتُ ثانيةً:

- ما هذا؟

خصلات شعرٍ من الضّحيّة قبل الأخيرة.

عقدتُ حاجبي بلا فهمٍ:

- ولكنّك أنت الأخير!

نظراته تكاد تخترقني، شعرت بهالة المكان بأكمله تتغيّر، وبدأ قلبي يضطّرب ويضرب بعنفٍ ضدّ أضلعي. تحرّكت شفتاهُ بعبارةٍ هوت عليّ كالموت.

- بل أنت!

أدركتُ ما يحدث الآن، ولكن جسدي يأبى التحرُّك وطاقتي مستنزفةٌ، وبثٌ كقطعة قماشٍ مبلّلةٍ ملقاةٍ على الأريكة بلا حولٍ ولا قوّةٍ، وأدركتُ خطئي أخيرًا، وأنّ الخوف هو تحديدًا ما يريد رؤيته والشُعور به من ضحاياه، وهو دافعه الأوّل والأخير للقتل، وأيّ طريقةٍ أفضل من أن يشاهدَ ضحاياه يعانون الأمرّين بخوفٍ أمام عينيه!

جلس في مكانه يحدّق بي، بينما يتعرّق جبيني وترتجف أطرافي وأنا أفكر بأنّني هالكٌ الآن لا محالة.

اتجه إلى أحد الأدراج، ثمّ أخرج منه سِكّينًا عريضةً لامعةً وعاد نحوي، رأيتُ تلك النظرة الشّيطانيّة التي أخبرني عنها، كان صادقًا.

- ولكن، كيف؟!

سألتُ ولم يكن سؤالي بغرض المعرفة فلم أكن أهتمُ، ولكن أردتُ المماطلة لعلّي أستعيد القدرة على الحركة، وأمّا هو فعاد للجلوس أمامي ملاعبًا السّكين وقال:

- أتقصد كيف أوهمتكم بأنّني ضحيّةٌ؟ كيف طعنتُ نفسي وقتلت الشاب الذي ظهر لي فجأةً واتصل بالشُرطة؟ أم كيف تلاعبتُ

بكم لتبقوني تحت الحماية في ذات القسم مع الفتاة في المشفى لأتخلّص منها؟ كان كلُّ شيءٍ أمامك، ولكنّك لا ترى!

- ألم يخبرك الطّبيب أنّه يعرفني منذ المرحلة الدراسيّة؟ ألا يعقل أن أكونَ طالبَ طبٍّ سابقٍ، وأعلم جيّدًا كيف أصيب أيّ شخصٍ في موضع مقتلٍ وكيف أتفادى ذلك؟

اقترب منّي وحزّك السّكين على جسدي حتّى مَزكَزَهَا / ركّزها في منطقةٍ محدّدةٍ ثمّ غرسها ببطءٍ وسحبها ببطءٍ أيضًا.

وتمتم بثقة وهدوء:

- حين ظهر لي ذلك الشّاب من بين المنازل وسأل عمّا يحدث، أربك خطّتي، ولكنّني رأيت فرصةً ذهبيّةً أخيرًا لأقترب منك، لأتلاعب بك كما فعلت، لأشاهدك عن كثبٍ وأنت تفشل في التوصّل لأدلّةٍ حاسمةٍ، راقبتك تدور حول نفسك مرارًا وتكرارًا حتّى عضضت ذيلك.

أنهى حديثه وانهال بتلك السّكين على جسدي حتّى بدأت أتلاشى، بردت أطرافي وتنمّل جسدي ولم أعد أشعر بشيءٍ، آخر ما رأيته هو وجه قاتلي وكنت الضّحيّة الأخيرة.

أجهلك.. ولكن أعلم أنّني أحبُّك

نامي يا فتاتي وأريحي نفسكِ جيّدًا..

في فجرٍ كهذا ودون أحدٍ ينفخ في راحتَيك..

ليس لكِ إلا غطاء ضريحك وبضع دعواتٍ..

نَامي ولا تنتظري أحدًا..

نامي كطفلٍ واحلمي كما تشائين..

فلا شيء في الغد ينتظركِ..

لا شيء معلومًا على الأقل..

وإن تساءلتِ لماذا؟

تذكّري أنّ الحياةَ غيبيّةٌ، ولولا الغيب لسَئِمتيها..

نَامي وانتظري موعدي مع القدَر..

وتصوّري نفسكِ في مكاننا المعتاد، نتأرجح بقاربٍ تسيّره الأمواج باتجاه اللّامكان..

أغمضي عينيكِ، وتخيّلي واستشعري، ولا تُطيلي النظر في الفراغ القاتل حولك..

سأوقفُ قاربي رُغمًا..

وتدفعني الأمواج إلى حيث أنتِ..

وقد تفزّينَ وتفزعينَ لأنك لا تتذكّرين من أنا..

ولكن أنا ما زلتُ أذكُرُ..

أذكُر تفاصيل السّعادة التي ما زالت تكتسي وجهك..

وحيثُ أُبصِرُ وأراكَ وينبض قلبي بعد صمتٍ طويلٍ..

أصلُ لغايتي وتبدأ رحلتي معك..

سأكون على هذا الوعد عاكفًا ما حييتُ..

جلس بمظهرٍ مهندمٍ على غير عادته أمام الطّبيب، الذي ابتسم بوسعٍ بمجرد أن أنهى قراءة رسالة مريضِه، ذلك النعي العاطفي الذي كتبه زين إلى زوجته الراحلة.

في كلّ مرّةٍ كان يحضر جلسته، كان يأتيهم زين بحالة سيئة على جميع الأصعدة: النفسية، والجسدية، والعقلية. ولكن هذه المرّة، بدا تحسّنًا ملحوظًا عليه. استبشرا خيرًا.

الطبيب بابتسامة مشجّعة:

- أرى أنّك مستعدٌ للتحدُّث من دون قيودِ هذه المرة؟

زين بهدوءٍ، وهو يحدّق في أصابعه المتشابكة بحجره:

- نأمل ذلك.

الطبيب بسعادة:

- أنا سعيدٌ للغاية؛ لأنّك قرّرتَ أخيرًا التحدُّث لنا. وأرجو أن تساعدَني لأملأ بعض الفراغات عنكما. وإن لم تشعر بالرّاحة لأيّ سؤالٍ أسألك إيّاه، يمكنك ببساطةٍ ألّا تجيب. راحتك تهمُّني.

زين يومئ بصمتٍ، والطبيب يستطرد:

- قبل كلّ شيء.. كيف التقيتما؟

زين:

- كنّا معًا في الجامعة. في الحقيقة، التقينا في عمادة القبول والتسجيل لأول مرّة، ولم نفترق منذ ذلك اليوم.. حتى..

يصمت، يتردد، ثم يواصل:

- حتى فقدتُها للأبد.

الطبيب:

- وتزوّجتُما قبل التخرُّج بعامٍ، صحيح؟

زين بابتسامة خافتة:

- أجل. تقدّمتُ لخِطبتها في العام الأوّل، ولم نتمّم حفل زواجِنا إلا في عامنا الأخير.

الطبيب:

- أخبرني عنها.. كيف كانت؟

زين بعينين مليئتين بالشوق:

- لديّ رغبةٌ بأن أقولَ: إنّها نصفي الآخر، وإنّها خطفت قلبي منذ اللّحظة الأولى بجمالها ورقّتها.. ولكن الحقيقة أنّها كانت مخالفةً لكلّ ما أعرفه. كانت فتاةً طبيعيّةً جدًا، لم تزد عن النساء الأخريات بشيءٍ. ولكن.. بطريقةٍ ما فعلتْ! لن أخبرك عن التفاصيل التي جعلت

كل شيء منها يبدو وكأنني أعرفه أو أسمعه وأراه للمرّة الأولى، ولكن يمكنك القول أنَ عينيّ فتحت للحياة معها.

كانت تضحك بصخبٍ يدفعك للضّحك معها بلا سبب. سعادتُها معديةٌ. لم أشعر يومًا بالحزن أو الهمّ أو النقص معها. مثاليّة لهذا الحدّ..

صمت للحظات، ودفن وجهه في كفّيه:

- بتُّ أشعرُ بأنّني خذلتُها.

- أتلوم نفسك لما حدث معها؟ أنت تعلم يا زين أنّ ما حدث لها ليس لك أيّ يدٍ به، وخارج نطاق سيطرتك.

- أعلمُ، لا تقلق.. لن أفقدَ صوابي وأبدأ بلوم نفسي مجدّدًا، ما أقصده هو أنّني رأيتُ بها ملاكًا لا يخطئ ولا يزال؛ للحدّ الذي دفعني لتجاهل أوّل علامةٍ، ولهذا السبب أشعر بأنّني خذلتُها، لم أنتبه منذ البداية أنّ ما قامت به لم يكن طبيعيًا، تجاهلت الأمر على الرغم من علمي بقرارة نفسي أنّ هناك خطبًا ما.

- أخبرني ما الأمور التي زرعت في قلبك الشكّ منذ البداية؟ ما الذي حدث؟

- كنتُ عائدًا من سفرٍ، وقد تحدّثتُ لها على الهاتف قبل وصولي بساعةٍ، أخبرتني بأنّها ستبقى مستيقظةً حتّى أصل؛ لذا بطبيعة الحال ضاعفتُ سرعتي محاولًا الوصول بنصف تلك المدّة، حين وصلتُ للمنزل كانت الأضواء مطفأةً ولا أثر لها بالأسفل؛ لذا توقّعتُ أنّها في غرفتنا بالأعلى، صعدتُ وأنا أناديها كيلا تفزع، ولكنّها لم

تجب، حين فتحت باب الغرفة كانت مستلقيةً على السرير.. نائمةً!

اقتربتُ منها بهدوءٍ، وجلستُ بطرف السّرير وانخفضتُ لتقبيل جبينها، كنتُ أفكّر في أنّها نامتْ متعبةً، حين رفعتُ رأسي.. عيناها كانتْ مفتوحةً على وسعها تنظر لي بصدمةٍ وفزعٍ؛ ولقربي منها استطعتُ الشُعور بضربات قلبها تتصاعد بشكلٍ جنونيٍ وأنفاسها كذلك، ولمْ يكن هنالك وقتٌ لأستوعب ما يحدث، فقد صرختْ وفزعتْ ودفعتني بكلّ قوتها لأبتعد، وبدأتْ بحمل ما تطاله يدها من الطاولة لترميه عليّ، ولكن ما جعلني في صدمةٍ هو ما قالته!

- ما الذي قالته؟

قالتْ بأنّه عارٌ عليَ أن أتواجدَ في غرفة شابّةٍ نائمةٍ، ثمّ هدذتني بالاتصال بزوجها لتخبره! استمرّتْ بالصُراخ ولمْ أفهم، كلّ ما أردتُه منها هو أن تهدأ وتتوقّف؛ لذا جاريتُها وغادرتُ الغرفة بعد إلحاحها ورفضها للاستماع لي وأنا أخبرها أنّني زين.. بمجرّد أن أغلقتُ باب الغرفة خلفي وقفتُ محاولًا فهم ما حدث، ورنّ هاتفي لأجيب فورًا ويأتيني صوتُها المنهار عبر الهاتف وسألتُها: ما الأمر حبيبتي؟

- بدأتْ تبكي وأخبرتني أنّني تأخّرتُ، وأنّ شخصًا مريبًا اقتحم منزلنا ودخل إلى غرفتنا، حاولتُ طمأنتها وأخبرتُها أنّني وصلتُ للمنزل، بل دخلتُه حتّى، وها أنا أتجه نحو غرفتنا، تظاهرتُ بإصدار أصواتِ خطواتٍ قبل أن أطرقَ الباب وأفتحه، بمجرّد أن رأتني ارتمتْ بين يديّ، وبدأت تلومني لما حدث.

- وما الذي فكّرت به بتلك اللّحظة؟

ظننتُ أنّني أفزعتُها حين استيقظتُ ووجدتني فوق رأسها فجأةً، وجزءٌ من عقلي كان ما زال يعتقد بأنّها إحدى مزحاتها ومقالبها، ولكن لم تكن كذلك.

- هل هذا فقط ما تذكره؟

- لا، باليوم التالي كانت في حالة صدمةٍ بسبب تناثر مقتنياتها حول الغرفة.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

لم يحدثْ شيءٌ، لم نتحدّثْ بما حدث تلك الليلة أبدًا، ليس لأنّنا لم نُرد ذلك؛ بل لأنّها لم تتذكّر، وهذا ما ندمتُ على تجاهله.

- ومتى أدركت أنّك أخطأت بتجاوز ما حدث؟

- بعد شهرٍ، ولكن كان قد فات الأوان.

كانت غاضبةً للغاية بشكلٍ لم أعتده عليها؛ لأنّها لم تغضب قَط من قبل، فما بالك بتلك الطّريقة!

حدثت الكثير من الأمور التي جعلتني أدرك أنّها تعاني من خَطبٍ ما، ولم أستطع قَط مواجهتها بذلك، ولكن الحادثة الفاصلة كانت في أحد أيام العطلة، كنّا قد حظينا بِعشاءٍ أعددناه معًا في المنزل، ثمّ قالت إنّها تشعر بالدوار؛ لذا طلبتْ منها الجلوس لتدع أمر غسل الأطباق لي، بثانيةٍ كانت جالسةً على الكرسيّ خلفي، وبالثانية التالية أخذت تُدمر كلّ شيءٍ تَحط عينها عليه!

- وماذا فعلتَ؟

- غسلتُ الكئوس، استمررتُ بِفعل ذلك متجاهلًا الفوضى.

- لِمَ تجاهلتَها؟ ألم يجدر بك إيقافها كيلا تؤذي نفسها؟

- بلى، ولكن قلتُ لنفسي إنها نوبةٌ وستنتهي، كما أنّني كلّما حاولتُ أجدها غضبتْ أكثر، محاولاتي كانت تزيد الأمر سوءًا. كانت كلّ شيءٍ! عدا أن تكونَ نفسها، من الصعب عليّ الفهم والاستيعاب أنّها الشخص ذاته، كما لو أنّ شيطانًا سكن جسدها، كانت تُدمّر كلّ شيءٍ يقف في طريقها حتّى ظننتُ بأنّ دوري سيأتي قريبًا.

دورك؟

- أجل، حين تردّد صدى خطواتها خلفي بعد أن هدأت العاصفة، وكنتُ ما زلت أدعي الانشغال بما بين يديّ، شعرتُ بها تقتربُ، كانت قادمةً باتجاهي، وقفتُ خلفي ولن أخفيَ عليك أنّني ارتجفتُ وهي شعرتْ بذلك، كنتُ أنتظر أن تنهالَ عليّ بما تستطيع من قوّةٍ أو ما تبقّى، وأغمضتُ عينيّ كيلا أراها بتلك الحالة وأقسمتُ على الصّبر، كنتُ مستعدًا لفعل أيّ شيءٍ حتّى تنتهي تلك النوبة وتهدأ.

- وهل حدث ما توقّعت حدوثه؟

- لا، شعرتُ بيديها تحيط خاصرتي، كانت تبكي بِصوتٍ مُنخفضٍ ونحيبٍ خافتٍ، شعرتُ بكلّ واحدةٍ من تلك الشّهقات الحادّة وكأنّها سكينٌ يُغرس في صدري، استدرتُ واحتضنتُها وبدأتُ تبكي أكثر، وأنا أرزتُ البكاء، ولكن لم أستطع.

- هل أدركت ما فَعلته؟ ألهذا بَكتْ؟

أذكرُ همسها لي بتلك اللّيلة قبل أن ننامَ، بنبرةٍ تَعجُّبيّةٍ وصدمةٍ

بليغةٍ، وحتّى الآن نبرتُها تلك تدور في عقلي.

قالت: ما الذي يحدث لي؟ سألتُها عمّا تقصده وقالت: رأيتُ انعكاسي بالمرآة وأقسم أنّني لوهلةٍ نسيت من أنا.

- إذًا، هي لم تكُن بِوعيِها؟

- لا أعلم، ولكن هذا أقلّ ما يقال.

- وَبِمَ أجبتَها؟

- لَم أُجبها بِشيءٍ ولم أستطع وإن أردتُ، كنت أبكي بِصمتٍ، كان قلبي المُرتعِب عليها يتمزّق، خِفتُ عليها، ولكنّني أشفقت على نفسي كثيرًا، كنت أجبن من التصرُّف بأيّ شكلٍ من الأشكال.

- وَلِمَ لَم تعرضْ عليها الذّهاب إلى الطّبيب؟ كان ذلك سيساعدك بالتعامل معها.

- طلبتُ منها، وَلَم تَستمع لي، بعد تلك الحادثة أصبحت هادئةً، منعزلةً.

- ما كان السبب في ذلك باعتقادك؟

- لا أعلم، سوى أنّني كنتُ مُخطئًا؛ لأنّها في اليوم التالي كانت في حالٍ مُريبٍ، كما لو أنّها تبحثُ عن شيءٍ لِتدمّره، لِتقتُله.

- مثل ماذا؟

- أنا.

- ماذا فعلتْ بك؟

- لحقت بي في أرجاء المنزل.. بسكّين تحمله في يدها.

وأنا لم أُرد أذيّتها؛ لذا استمررتُ بالهرب، حتّى ركضتُ من درجات السُلّم وحدث ما لم أتوقّعه.

- ما الذي حدث؟

- ألقت بجسدها من الأعلى فوقي، ووقعنا على الأرض معًا، وتلك السكّين اخترقت جسدي.

كنتُ مصدومًا! واجهتُ صعوبةً في خروجي من حالة الصّدمة، حتى إنها عادتْ لوعيِها قبل أن أفعلَ.

- وعندما استعادتْ وَعيها ماذا فعلتْ؟

كما لو أنّها تداركتْ مَن الشّخص الذي طعنته، بدأتْ تُناديني بِخوفٍ.

أبقيتُ عينيّ مغلقةً، كان الألم لا يحتمل، لَم أنطق وَلَم أشعر بشيءٍ، عدا أنّني استيقظتُ بعد ذلك في المشفى. ولَم أجِد أحدًا، استمرّ غيابها المعتاد بعد هذهِ الحادثة لأسبوعٍ، كانت تأتيني بضع دقائق من كلّ يومٍ من دون أن تنطقَ بحرفٍ ثمّ تغادر ولا.. ولا أعلم عنها شيئًا.

عندما أتتْ في اليوم الذي وقّع به الطّبيب على خروجي، فرحتُ بِقدومها، شعرتُ بشيءٍ مختلفٍ تلك المرّة، خصوصًا وقد رأيتُ ابتسامتها منذ أن عَبَرتْ من الباب، وتأمّلتُ خيرًا بذلك، سألتها لِمَ لَم تجب على اتصالاتي؟، فأخبرتني أنّها أضاعتْ هاتفها.

- هل بدتْ لك طبيعيّةً؟

- أجلْ.. للغاية، ورؤيتي لها ذلك اليوم أنستني تمامًا ما حدث مسبقًا

بيننا، اعتقدتُ أنّنا وأخيرًا عُدنا إلى حالة الاطمئنان.

- أنت تقول اعتقدت! لماذا؟

- لأنّها..

صمت لوقتٍ طويلٍ وَلَم يشأ الطّبيب الضّغط عليه.

- في نهاية ذلك اليوم.. بعد أن خرجنا للمشفى معًا وعدتُ للمنزل، ساعدتني بتغيير الضّمادة فوق الجرح الذي تركه السكّين، ثمّ اعتذرت عمّا تسببتُ به، وَلَم تدعْ لي مجالًا للنقاش، أخبرتني أن أذهبَ بها إلى المَشفى.

- هي من طلبتْ ذلك!

- أجلْ، كانت هادئةً وحدّقت بي طويلًا كأنّها تنتظرُ إجابتي.

ولَم أجبْ، بصباح اليوم التالي حين استيقظتُ، أمّلتُ أن تكونَ قد نسيتْ، ولكن كانت تنتظرني!

- وهل فعلتَ ذلك؟ هل أخذتَها للمشفى؟

- أجل وشعرتُ بكلّ شيءٍ، كنتُ أشعر بِجسدي ثقيلًا بالكاد يَسيرُ، انعدمت الرّؤية أمامي، ولا أعلم حتّى هذا اليوم كيف كنتُ أقود! بَكيتُ طوال الطّريق بِصمتٍ كيلا تسمعني.

- لماذا لَم ترد أن تسمعَك؟

- لأنّها كانت تبكي كذلك.

- عند وصولكم للمَشفى، هل حدث شيءٌ؟ هل تراجعتْ أو ندمتْ؟

- لا، أخبرتني بأنّها آسفةٌ، وأنّ تلك التصرُّفات ليست صادرةً منها وهي ليست راضيةً عنها، ولم تستطع تحمل إيذائها لي أكثر من ذلك.

- وهل تُصدِّق ما قالته؟

- لقد كنتُ في حالة زعزعةٍ لا أنكرُ ذلك، لكن بالفعل هي ليست صادرةً منها، تلك التصرُّفات لا يعقلُ أن تصدرَ منها أبدًا.

- حسنًا، أخبرني زين كيف كانت تجربتها مع المَشفى؟ ما المرض الذي عانت منه؟

- أخبرني الطّبيب بأنّ أغشية عقلها التهبت تمامًا، وأنّ الورم قد انتشر وتوغّل في عقلها بشكلٍ يصعب استئصاله أو الاقتراب منه حتّى!

- وهل كان هذا هو التفسير لتصرُّفاتها؟

- جُزئيًا نعم.

- والجزء الآخر؟

- نَفسيّ، تفاقمت حالتها حين كانت تحاول إنكار ما يحدثُ، وَلَم تصدِّق بأنّ ما حدث كان يحدثُ لها هي، كان ذلك صعبًا.

- وهل تعالجت؟

- في البداية، ولكن في يومٍ ما مَنعوني من رؤيتها.

- أكنت تزورها كثيرًا؟

- كلّ يومٍ، لَم أتركها.

- لِمَ مَنعوك من رؤيتها؟

- كانتْ هي صاحبة القرار، قرّرتْ أن تخليَ سبيلي.

- وهل كنت أسيرًا؟

- بدوتُ كذلك، لمْ أستطع التقدُّم في حياتي من دونها.

- وكيف تقبّلت الأمر؟

- كنتُ هادئًا، غاضبًا في داخلي، ولكنّني تفهّمتُ موقفها، وقبلتُ بالأمر الواقع، وكنتُ مغادرًا لكنّني قرّرتُ المرور على حجرتها لمرّةٍ أخيرةٍ.

- ماذا حدث؟

- كنتُ سأمرُّ فقط، لكنّني وجدتُ نفسي أصرخ باسمها، وأخبرها أنّني أحبُّها على الرغم من كلِّ شيءٍ، ولن أتركَها كما قرّرتْ هي تركي.

- وَلَمْ تتركها؟

- لمْ أفعل.

- لماذا؟

لأنّني أحببتُها، وما زلتُ، على الرغم من كلِّ شيءٍ، المرض فعل الكثير، ولكنّني ما زلتُ أحبُّها، ليس لها يدٌ في ما حدث، هذا الأمر يَفوق حجمها وطاقتها.

- لكنّها في النّهاية قرّرت التخلي عنك!

- بِسبب ما فعلته، لمْ تُرِد لي تلك الحياة معها، ولكنّها لمْ تفهم أنّني

لا ألومها ولم أفعل يومًا.

لأنّ قدميّ كانتا تأخذاني إليها كلّ يومٍ حتّى وإن لم أرغب بالذّهاب، كنت أجد نفسي أمام المشفى وأحدّق من الحديقة نحو نافذة غرفتها بانتظار أوقات الزّيارة.

- حتّى وإن لم ترغب؟ إذًا أنت لم ترغب يومًا في الذّهاب إليها؟

- أجل بعد سنةٍ ونصفٍ من وجودها في المشفى، أخبرني الطّبيب بأنّها بدأت تنسى الكثير.

- وما علاقة ذلك بِعدم رغبتك في الذّهاب إليها؟

- كنت خائفًا من أن أذهبَ وأجِدَها بالفعل قد نسيتني، كنت أبكي لمجرّد التفكير بأنّ ذلك قد يحدث. ولم تنسَنِي بسرعة كما فعلت مع أسرتها، لكنّها نسيتني في النهاية.

وقال لي الطّبيب إنّ نسيانها لي سيجعل أمر التخطّي لها أسهل، وبالفعل ذات يومٍ.. هي سألت الممرّضة عن الغريب الذي يحدّق بها من نافذة الباب، وسمعتها.

وسألتني يومًا ماذا أكون لها ولم أجب؟

- لماذا؟

- هي كانت بالفعل تعلم في داخلها أنّني كنت شخصًا عزيزًا عليها، النظرة التي كانت تنظر لي بها قالت كلّ شيءٍ.

- كم استمرّ وجودها في المَشفى؟

- سنوات، حتى إنها فاقت توقُّعات الطّبيب وعاشت عشر سنواتٍ

أخرى فوق المتوقّع، أربع عشرة سنة.

- كم عُمرك الآن سيّد زين؟

- خمسون عامًا.

- وهي كذلك؟

- كانت ستكمل عامها الخمسين معي بالأسبوع الفائت، لكنّها لم تفعلْ.

- هل تزوّجتَ بعدها؟

- أجل، ولكنّني مُطلّقٌ الآن.

- هل لديك أبناء؟

- ابنتان، ضياء وسراب.

- وسراب، لا بدّ من أنّها المدلّلة؟

- أجل، وهي الأقرب لقلبي، أحبّها كثيرًا، تشبهها على الرغم من تشابه الأسماء.

- إذًا سيّد زين، كيف كان اللّقاء الأخير مع زوجتك سراب؟

- فظيعًا؛ لأنّها كانت النّهاية، والنّهايات دائمًا فظيعةٌ.

- أخبرني إذًا.

- كانتْ مُستلقيةً.. غاب عن عقلي أنها تحتضرُ، أذكرُ ذلك جيّدًا؛ لأنّني حين استوعبتُ فُصلتُ عن الواقع بشكلٍ سيّئٍ، لم أستطعْ حتّى الإجابة على اتصالات طليقتي، أخذتُ بيدها وعانقتُها، كنتُ أذرف

الدُموع بِصدمةٍ.

- صدمة؟

- أجل، لو أخبرني أحدهم قبل أربع عشرة سنة، بأنّ علاقتنا ستأخذُ هذا المجرى لما صدّقتُه، كنتُ سأضحك كثيرًا، بينما سراب ستسخر منه وستعتقد بأنّه يحسد علاقتنا، كنا ثنائيًا لا يُهزمُ.

- بالطّبع كان ذلك صعبًا.

- أجل وما زلتُ لا أصدق مُفارقتها للحياة.

- عزائي لك.

- شكرًا.

- وهل صحيح بأنّ السيّدة سراب طلبتْ محادثتك قبل وفاتِها؟

- أجل.

- إن أردتَ الاحتفاظَ بما حدث بينكما لِنفسِك لا بأس.

- لا بأس، سأخبرك.

- أشكرك لثقتك بي، إذًا ما الذي أرادتْ قوله لك؟

- ليس الكثير، جاهدتْ نفسها لتجلس على الفراش، ومدّتْ يدها المرتجفة إلى وجنتي ونظرتْ لعيني بعمقٍ، لم أستطغ رؤيتها بوضوحٍ بسبب الدُموع المكتنزة في مقلتي، وبمجرّد أن انزلقت تلك الدّمعة مسحتها وقالت: لا تحزن..

أجهلك، لكنّني أعلم أنّني أحبّك.

- كما قُلتَ، كانت تعلمُ من أنت في داخلها.

- أجل، ولهذا مرضتُ بعد وفاتها، لم أستطع العودة إلى المنزل، خصوصًا وطليقتي كانت قد أنهت إجراءات طلاقِنا وحضانة الأطفال ذهبت لها فورًا، لكنّني لسببٍ ما لم أكترث واكتفيت باللُجوء إلى أكثر مكانٍ آمنٍ لي، ذهبتُ نحو منزلنا القديم وبقيتُ هناك.

- ما زال ملكك؟

- أجل، وما زلتُ أدفع مصاريف المياهِ والكهرباءِ والإصلاحاتِ على الرغم من عدم تواجدي به كثيرًا.

- هل كان هذا التصرُّف ذا تأثيرٍ جيّدٍ؟ ذهابك للمنزل؟

- بالطّبع ساعدني ذلك، كنتُ أعلمُ بأنّ الأمر سَينتهي يومًا لكن ليس بتلك الطّريقة، اعتقدتُ بأنّها ستخرجُ يومًا ما، لِذا فكّرتُ بالاحتفاظ بكلّ شيءٍ كما اعتادتهُ، إن احتجتُ إلى مكانٍ لِلعناية بها وتذكيرِها بما مضى، ولكن انتهى بي المطافُ أحاول تجاوز كلّ تلك الذّكريات، بالتخلّي أخيرًا عمّا أبقاني مرتبطًا بها روحيًا وجسديًا.

- ونجحتَ بذلك؟ أرى بأنّك اليوم أفضل حالٍ ممّا مضى.

- قد يُخيّلُ لك..

- لماذا؟

- لأنّني أدركتُ أخيرًا أنّني لن أتخلّصَ أبدًا ممّا يربطني بها روحيًا، وإن تخلّيتُ عن كلّ ذكرى وكلّ شيءٍ كان لنا يومًا، تلك الرّابطة كانت عميقةً، حتى إنها تسبّبت بانفصالي عن الواقع لأسبوعٍ، قبل أن أصلَ

لهذا الحدّ من الرضا أخيرًا.

بسبب ما قالته.. أجهلك، ولكنّني أعلم أنّني أحبّك.

علمتُ لمّا تسلّلت خلفي مزّاتٍ عديدةٍ، وتبعتني ببطءٍ حتّى أغادر.

علمتُ لمّا تردّدتْ مزّاتٍ كثيرةً بالتحدّث لي، وتراجعتْ في اللّحظة الأخيرة.

علمتُ لمّا بادلتني الابتسامة، حين رأتني من نافذة حجرتها، وعلمتُ لمّا قامتْ فجأةً بدعوتي لكوب قهوةٍ من كافتيريا المشفى.

ولا أقولُ شيئًا ولا أعترضُ، ولكن كلّ ما فيّ يرجو أن تمدّ يديها نحوي، وتمنع عنّي الوحشة التي تسلبني من الحياة، الأرواح جنودٌ مجنّدة، ولم يكن لأرواحنا أن تغادرَ ساحة المعركة إلا معًا.

أعلم أنّني تأخّرتُ في الفهم، ولكنّني فعلتُ أخيرًا.

لو لم تقلْ ما قالته لما فكّرتُ بهذا العمق، ولما وقعتُ في هذه الدّوامة، ولم أكن سأسلّم بالأمر وأقتنع بأنّ تخطّيها أمرٌ مُحالٌ.

عقد الطّبيب حاجبيه لأوّل مزّةٍ! كيف لم يفهم منذ البداية! منذ أن قرأ ذلك النعي!

وأنّه ليس نعيًا للماضي، بل نعيًا لشخصٍ لم يعد يطيق الحياة.

ضغط على زرّ الاتصال السريع فوق مكتبه، ليتصل بالإسعاف.

- زين! ما الذي فعلته لنفسك؟

تبسّم زين برضى ووجهٍ شاحبٍ، وقد بدأتْ أعراض التسمُّم تظهر

عليه، استند للمقعد ثمّ قال بصوتٍ هادئٍ

- أنا فقط سعيدٌ للغاية الآن؛ لأنّ أرواحنا ستلتقي.

لحظة الإدراك

استمرّ عثمان بالسّير ذهابًا وإيابًا بعينين محمرّتينِ وثيابٍ رثّةٍ وحالةٍ يرثى لها، شكله كان عبارةً عن فوضى على هيئة رجلٍ، والأسوأ أنّ هذا الرّجل كان محققًا؛ أدخل نفسه في سلسلةٍ من العقَد التي لم يعد يعرف لها بدايةً أو نهايةً. قامر بحياته وراهن على خبرته وصِيتِه الذّائع أمام مجرمٍ ليس كأيّ مجرمٍ، بل هو شخصٌ يجيدُ التلاعب بضحاياه، وبكلّ مرّةٍ يظنّون بأنّهم أوشكوا على الإمساك به فيتضح بأنّه كان يسبقهم بخطوةٍ.. بلْ خطواتٍ.

بدأ جحيمه هذا حين تلقّى دعوةً من زميله المحقّق قاسم في مدينةٍ أُخرى، زميله هذا هو أخو زوجته، ويتمتع بشهرة وخبرةً تفوق ما لديه. طلب مساعدته كقريبٍ يثق به؛ أرسل له عشرات الرسائل يستجديه فيها لمساعدته، وفي كلّ مرّةٍ يظل قاسم ينتظر بفارغ الشوق أيّ ردٍّ على رسائله، ولكن من دون جدوى، فعثمان يلقِي بها واحدةً تلو الأخرى من دون اهتمامٍ، وأصرّ على زوجته أنّ شقيقها ليس بحاجةٍ إلى المساعدة، وأنّه سيُهان كالمرّة السّابقة حين دعاه، ولم يسمح له بالمشاركة في قضيته فقط ليحرجه أمام زملائهم، أو هذا ما كان يعتقده، إلى أن جاء ذلك اليوم؛ حين شاهد الخبر في الجريدة، ينصّ على أنّ المحقّق قاسم لقي حتفه في أثناء سعيه لحلّ القضيّة!

لم يكشف عن ملابسات الجريمة، غير أنّ الجميع علم أنّها الجريمة السادسة لذات القاتل، الذي اعتاد أن يتلاعب بالمحقق حتّى دفعه للانتحار، وهذا ما نصّ عليه الخبر في الجريدة:

«المحقّق قاسم أنهى حياته بيده في ظروفٍ غامضةٍ! فهل أقفلت كلُّ الوسائل أمام وجهه في القبض على القاتل؟»

وبعنوانٍ آخر..

«المحقّق الراحل في رسالته الأخيرة:...

كنتُ أتمنّى أن أحصلَ على الدّعم الذي أردتُه حين احتجتُه، لستُ غاضبًا من صديقي عثمان، ولكنّني سأقولُ له وداعًا.. ووداعًا أيضًا أيها العالم».

وجد عثمان نفسه في مأزقٍ، وأي مأزق!

على الرغم من أنّه أجرى العديد من الاتصالات، وطلب كلّ معروفٍ قام به لأيّ شخصٍ ذي وصولٍ؛ ليساعده في إبقاء أمر رسالة انتحار صديقه سِرًّا، إلا أنّ كل ذلك لم يجد نفعًا، الأمر الذي جعله في وضع يتطلب منه اتخاذ موقف والشروع في عمل. إنّه مجبرٌ على التدخُّل لكي يبرّئ نفسه، فالعديد من الأسئلة طُرحتْ حوله خصوصًا وأن صديقه قام بذكره في رسالة انتحاره، فهل خذله؟

كان عليه أن ينافيَ تلك الصُّورة التي نُشِرَتْ عنه على الرغم من حقيقتِها، بل ووزّطَ نفسه أكثر حين ظهر في مقابلةٍ ينفي بها تخلّيه عنه، وأنّه أخفى حقيقة عمله على القضيّة حتّى يملكوا اليد العليا أمام القاتل، وصدّقوه.. لكنّه يعلم أنّه كاذبٌ، وهذه الكذبة تحديدًا حبلُها قصيرٌ جدًّا.

لِذا فهذه القضيّة قد أفقدتْه عقله منذ البداية، وهذا المجرم اللّعين يدفعه للجنون! مجرم يتمتع بذكاء استثنائي وإلا لما استطاع أن

يجرَّدَ محقِّقًا من سلاحه! وتمكّن من دفع قاسم، أيّ مَخرجٍ سوى الانتحار (مجبر أخاك لا بطل) كما يقال!

كاد يفقد صوابه من كثرة التّفكيرِ..

مرّ شهرٌ بالفعل منذ أن أقحمَ عثمان نفسه بطريقةٍ لم يستطع الخلاص منها، وقابل العديد من المشتبه بهم، وتدارس القضيّة مع كلّ شخصٍ له علاقةٌ بها.. ولم يتوصّل لأيّ شيءٍ.

وتيرة عثمان في العمل على القضية لفتت نظر الكثيرين، ما حدا بالطّبيب النفسيّ الذى يعمل مستشارٌ للقضيّة، لِلتدخُّل:

- اهدأ قليلًا رجاء..

طَلب منه بهدوءٍ وهو جالسٌ على الأريكة في مكتبه.

- أنا قاب قوسين أو أدنى من الجنون، وأكاد أقسم أنّه (فلان) المشتبه به الوحيد، رأيتُ نظرته لي منذ أن التقيتُه، رأيتُ في عينيه الشّخرية من عدم مقدرتنا على القبض عليه؛ لعدم توافر أدلّةٍ كافيةٍ، شدّ على خصلات شَعره للخلف بعصبيّةٍ وانهيارٍ.

- ليس بالضّرورة، لا تُفكّر بأمور لا تُفيدك في مسعاك، تصرُّفاتك هذه وما تفعله الآن هو ما قادك إلى الانهيارِ العصبيّ، وقد يَتمُّ استبعادُك من القضيّة ما لم أكتب عنك تقريرًا يقرُّ بتمكُّنك من مزاولة عملك، ولكنك لا تساعدني..

أنت فرصتنا بالقبض عليه الآن فاهدأ وكنْ عقلانيًا، كما أنّك تُشتّتني بحركتك المستمرّة.

أوضح بهدوءٍ من دون أن يشعرَه بالتضجُّر.

- هل تريد منِّي الجلوس؟

سأل المُحقِّق عثمان الطّبيب.

- الخيار لك، إن كنتَ تفضِّل الجلوس أم الوقوف، ولكن ابقَ هادئًا.

تنهّد عثمان، وجلس مقابلًا له على الأريكة الأخرى.

- استرخِ وأخبرني بِمَ تشعر؟ ما الذي يثير حفيظتك بهذه الطّريقة؟

- سبب انفعالي هو عدم اتفاق الجميع بالقِسم معي، لا أحد منهم مقتنعٌ بأنّ القاتل هو ذاك المشتبه به، ويظنّون بأنّني أحاول الوصول لأقرب مخرجٍ من هذه الفوضى، ولكنّني متأكّد أنّه هو، لا أحد غيره!

- وما الذي يدفعك للاعتقاد أنّه هو القاتل؟

- حسنًا..

تنهّد بعمقٍ واسترسل مسترجعًا تفاصيل تحليله.

- موقعا جريمته الأوّل والثّاني، يشيران لكونه (مجرمًا سايكوباثيًا) مهووسًا بالتحكُّم، فتلاعبه بضحاياه في لحظاتهم الأخيرة يؤكّد ذلك، فهو يجبرهم على تسليم أسلحتهم وغيرها، ويستخدم أكثر الأسلحة خفاءً؛ لذا هو يخشى الهجومَ العلنيّ، ممّا يعني أنّه شخصيّةٌ معاديةٌ للمجتمع، ويفتقر لأدنى مهارات التواصل.. هذا الخبيث إمّا أن يكون قاتلًا منتقمًا، أو مجرد إرهابيٍّ حانقٍ على المجتمع، يستهدف رجال الأمن في الدّولة.. وكأنّه يحاول أن يوصلَ رسالةً، أو أن يسخرَ منّا ويرينا أنه الأذكى!

وأضاف:

- إنّه يستمتع برؤية ضحاياه يموتون بضعفٍ. ذكاؤه حتّى الآن يشير إلى أنّه شخصٌ غير عاديٍّ، وقد درس جريمته من كافّة النواحي، وعدم قدرتنا على الإمساك به تشير لذلك، وفي أثناء مقابلتي مع المشتبه به، الكثير من الجوانب النفسيّة انطبقت عليه، لم نستطع إدانته؛ لأنّه يملك حُجّة غيابٍ لجريمةٍ واحدةٍ فقط! ولكنّه قال لي بلسانه: إنّه لو كان قاتلًا فبالتأكيد، سيفضّل تسميم ضحاياهُ، ومشاهدة أرواحهم تغادر أجسادهم ببطءٍ..

قاطعه الطّبيب قبل أن يكملَ..

- هذا رائعٌ، ولكنّنا انجرفنا بعيدًا، أريد أن أعلمَ كيف تشعر حيال الأمر؟ نحن هنا لتقييمك، أخبرني كيف ترى الأمور في حياتك؟ بسبب هذه القضيّة، وما الذي يدفعك للانهيار، لا أريد تحليلك للقضيّة.

- ما الذي تقصده؟ ليس في حياتي ما يدعو للقلق.

- ولا حتّى أسرتك؟! هل أنت متأكّدٌ من أن هوسك بحلّ هذه القضيّة، لا علاقة له بشائعة انفصال زوجتك عنك، قبل أن تستجيبَ لدعوة المُحقّق قاسم، أخيرًا وحين فعلت كان قد فات الأوان.

ما قاله الطّبيب كان بمنزلة صفعةٍ قويةٍ، هَوتْ على وجهه وما جمعه من شتاتٍ في الدقائق القليلة هذه، تَبعثَر مرّةً أخرى، وانهارت دموعه وصوت نحيبه الذي حاول كتمهُ، كان يرتفعُ ويتمزّقُ خارجًا ما بين شهقاته:

- عملي أثّر على زوجتي ومعيشتي؛ لأنّني لم أنجح مثلما فعل قاسم، واعتقدتُ في بداية الأمر أنّني قد أحصل على الصّيت الذي أريده، بعد أن أحلّ هذه القضيّة، ولستُ متأكّدًا هل أنا مستاءٌ لهذا السّبب، أو لكوني أتيتُ لمصلحتي وليس من أجله، أنانيّتي أدّت لمقتله!

- هل هذا ما تعتقدهُ أم ما تعتقدهُ عنك زوجتُك؟

- هذا ما قالته لي زوجتي.

تنهّد الطّبيب وأكمل الكتابة في مذكّرته الصّغيرة وقال بهدوءٍ:

- لا يمكنك لوم نفسك يا «عثمان»، لم تكن لتعلم المستقبل، وكان ذلك سيحدث على أيّ حالٍ.. ولكن دعني أساعدك لتساعد نفسك، ما تفعله ليس تصرُّفًا صحيًا، ونوبات الهلع الهيستيريّ هذه! هي بسبب شعورك بالندم والذنب معًا، ولكنّك أيضًا تشعر بالغضب، وقد يكون غضبك لأسبابٍ متعدّدةٍ، منها الشّعور بالضّعف؛ نظرًا لكونك تشعر بأنّك محاصَرٌ ومجبَرٌ على حلّ هذه القضيّة، فالخروج منها مهزومًا ليس خيارًا متاحًا، هذه هي مشكلتك، أنت وتفكيرك، ليست المشكلة بزوجتك أو القضيّة أو المجرم، أنت مليءٌ بهذه المشاعر السلبيّة منذ مدّةٍ، ومقتل صديقك دفعك عبر حافّة الجرف، وجرّك نحو الهاوية.

وأضاف الطبيب:

- مشاعرك هذه قد تكون مرتبطةً بذكرى لك من الماضي، أو حدثٍ تلوم نفسك به، وله ارتباطٌ كبيرٌ بما يحدث اليوم، هل تستطيع تذكُّر شيءٍ مثل هذا؟

أومأ عثمان:

- أجل، لم أخبر أحدًا من قبل، ولكن والدي توفي بحادثٍ مروريٍّ، حين اصطدمت به سيّارةٌ مسرعةٌ في أثناء عودته من المشفى، وأسرتي تلومني على ما حدث؛ لأنّني لم أذهب لاصطحابه، مَا دفعه لمحاولة العودة سيرًا.

كان يبكي ويختنقُ بكلماته وهو يسترجع هذه الذّكرى:

- حتّى هذا اليوم، ما زلتُ لا أملك الشّجاعة للنظر في أعينهم، لأخبرهم أنّني أسِفٌ لِخُذلانهم، وإن كان أسفي لا يعني لهم شيئًا.

تنهّد بعمقٍ بعد أن روى هذه الذّكرى، وكأنّه ارتاح لتخلُّصه منها.

تبسّم الطّبيب:

- أرأيت؟ بالمرّات السّابقة تحدّثنا كثيرًا عن تفاصيل القضيّة، ولكنّني أعلم الآن أنّها ليست ما يثقلك، والنشاط الذي طلبته منك ، لم يُجدِ نفعًا؛ لأنّني كنت أركز بالجانب الخطأ، ولكن لم يفت الأوان، أريدك أن تبدأ باسترجاع الماضي، وتدوين مشاعرك عن هذا الحدث، وكيف يرتبط بشكلٍ كبيرٍ بما يحدث معك هنا، وكيف يتحكّم بمشاعرك ولكن كما نفعل كلّ أسبوعٍ، قيّذها وخصّصها بشخصٍ، عدوٌّ قديم، أسرتك، زملائك بالعمل، أو حتّى للربّ إن أردت، أكتب ما يدور بذهنك وما تشعر به، تذكّر بأنّك في منطقةٍ آمنةٍ ولا يوجد من سيحكم عليك أو ينتقدك، وإن كان ما تعتقده ضربًا من الجنون.

جلسا بصمتٍ حتى إنتهى عثمان من كتابة رسالته، ثمّ طلب منه الطّبيب مرّةً أخرى:

- صِفْ لي لوضع الآن.. كيف تشعر؟

على الرغم من أنّه حاول التماسك، فإنّه لا إراديًا انخرط في بكاء مرير، أغرقت الدُموع ورقته؛ مَا دفع الطّبيب ليناوله منديلًا قماشيًا يواري به وجهه ويمسح به دموعه.

- أشعر بالانهزام وبالمسئوليّة تجاه الأشخاص الذين أخذلهم، لا أعتقد أنّني الشّخص المخوّل للعناية بأُسرةٍ، فما بالك بوظيفةٍ كوظيفتي، ومسئوليّةٍ كالتي أحملها فوق كتفي!

وأضاف:

- ربما، ربما كان قاسم ليعيش، لو أنّني.. لو أنّني قدّمتُ له المساعدة، لولا أنانيّتي.. لو أنّني تجاوبت وتعاونت معه منذ الرّسالة الأولى، لم أكن لأخسر أسرتي أقلّها، حتى إنه كتب في رسالته..

تنحنحَ وأكملَ:

- قال بأنّه يحتاج إلى دعمي، يحتاج إليّ إلى جانبه لأنّه.. لأنّه يشعر بأنّه لم يَعُد يثق بأحدٍ، وأنا أكّذتُ له مرارًا وتكرارًا أنّه يستطيع الاعتماد عليّ والوثوق بي، ولكنّني لم أفعل شيئًا.

ابتسامةٌ خفيفةٌ نَمتْ على شفتي الطّبيب، جعلته في حيرةٍ من أمره حين طالت آثارها على وجهه وسأل:

- ما الأمر؟

- قل لي هل اتّضح بالأخير أنّه يستطيع الوثوق بك؟

هزّ عثمان راسه بالنفي بانهيارٍ

-ل..ل..

حاول نطقها وشعر بثقل الكلمة من لسانه تجرُّه للأسفل، خذل صديقه وسار في جنازته، بدأ يشعر بنوبة الهلع التي جاء إلى هنا تحديدًا لمعالجتها، وحاول جاهدًا التقاط أنفاسه والتحكُّم بها، على الأقل ليهدئ من ضربات قلبه المتسارعة:

- كيف علمت؟

سأل عثمان بِثقلٍ.

أجاب الطّبيب:

- علمت ماذا؟

- بالبداية قلتَ لي إنّني استجبتُ أخيرًا لدعوة صديقي! كيف علمتَ أنّه دعاني لأكثر من مرّةٍ! لم يعلم أيُّ شخصٍ بهذا سواي، وكلُّ ما يعلم بِشأنه الجميع هو الرّسالة الأخيرة، فكيف علمت؟

حين ركّز عينه على الطّبيب، لمح تلك الابتسامة الصّغيرة تكبر بطرف شفتيه مجدّدًا، وعلى الرغم من تضاؤل مقدرته على الروية، فإنه شاهد بعينيه المحمرّتين المنتفخة الطّبيب وهو يغلق دفتر ملاحظاته، ويسحب المنديل الذي ناوله له ليمسح به وجهه.. أدرك ما حدث، وكانت تلك إشارة خطرٍ له وشعر بالتهديد؛ لذا هبّ من مكانه ووضع يده بمكان سلاحه..

واستوعب مجدّدًا أنّه لا يحمله، وأنّه اضطرّ لتسليمه للطّبيب فور دخوله كضمان أمانٍ.

أجاب الطّبيب وهو يسحب الورقة التي كتبها عثمان وقال:

- هو أخبرني ذلك بنفسه، هنا تحديدًا وعلى هذا الكرسيّ، مثلك تمامًا!

سقط جسد عثمان على المقعد مجدّدًا بضعفٍ، حين استوعب لمرّةٍ أخيرةٍ.. أنّه خدع وفهم اللُّغز في قضيّتهم المعقّدة بالتفصيل في لحظاته الأخيرة.

في صحيفة اليوم التالي..

عثر على جثّة المُحقّق عثمان منتحرًا، تاركًا خلفه رسالةً يعبّر فيها عن ندمه وأسفه لأسرته ولصديقه وللناس، ويطلب المغفرة على تقصيره في حماية مَن هم تحت حمايته، وبدا بأنّ القاتل قد وصل له أخيرًا، وتلاعب به كما تلاعب بمَن قبله.

يبقى السؤال هنا، هل أُجبر على الانتحار، أم لا؟

الطّبيب النفسيّ المستشار في هذه القضيّة، أكّد أنّ عثمان كان يعاني من الاكتئاب ونوبات هلعٍ؛ مَا يشير بشكلٍ كبيرٍ إلى قابليّة الانتحار.

- هل اختبأت؟

2

- هل أنت مستعدٌ؟

1

- ها أنا قادمٌ لأُمسك بك..

التفتُّ وانطلقتُ راكضًا نحو المنزل، أعلم تحديدًا كيف يفكّر أخي سامي وأين سيختبئ.

تسلّلتُ إلى مكتب أبي في قبو المنزل بحذرٍ؛ خوفًا من إصدار أيّ صوتٍ، بينما تأخذ خطواتي درجات السُّلّم واحدًا تلو الآخر، دفعتُ الباب وانسلَّ جسدي من فتحةٍ صغيرةٍ وبدأتُ أتلفّتُ بحثًا عن أخي، دائمًا ما يختبئ في مكتب أبي؛ لأنّه يعلم كم يغضب حين يرانا في مكتبه، وعادةً لا نجرؤ على النزول له أو الاقتراب من الباب حتّى؛ لِذا يصرُّ هو على الاختباء فيه، خصوصًا وعقاب والدي لا يطاله كما يطالني، ولكن ما كان يهمُّني دائمًا هو سعادتنا فقط.

أخذني الحماس كثيرًا، وجرفني عن الواقع، للحدِّ الذي لم أنتبه به للجسد الذي سدَّ الباب خلفي، ووقف بأعينٍ يتطاير منها الشَّرارُ يراقب خطواتي، وللحدِّ الذي دفعني لسؤاله بعفويّةٍ وحماسٍ حين رأيته: أبي هل رأيتَ أين اختبأ سامي؟

ونسيتُ تمامًا أنّني أتجوّل في عرين الوحش، وغُيّبَ عن عقلي

مصيري السيّئ، وأن تلك النظرات هي ذات النظرة الجحيميّة التي اعتدتُها منه، قبل أن يهويَ عليّ بغضبه العارم.

استدرتُ معطيًا ظهري له بلا إدراكٍ، واتسعت ابتسامتي حين لمحتُ ظلّ قدميه تحت المكتبِ الخشبيّ في آخر القبو.

أمسكتُ بك..

همستُ لنفسي وتسارعتْ خطواتي نحوه، وقبل أن أنخفضّ بجسدي لأمسك به، سرتْ بجسدي قشعريرةٌ قويّةٌ، وشعورٌ كالكهرباء شلّ أطرافي، وأسرى سيلًا مشتعلًا مؤلمًا فوق ظهري، لوهلةٍ أكاد أقسم أنّ روحي غادرتْ جسدي، وعادتْ بذات اللّحظة من هول ما شعرتُ به.

وبعد تلك اللّحظات التي شُل بها جسدي، لم أعد أشعر بشيءٍ، لا شيء أبدًا من الضربات المتتالية التي صوّبت نحو جسدي بلا أيّ رحمةٍ.

الدّخول إلى مكتب أبي كمثل أيّ أمرٍ محرّمٍ لا يجدر بنا فعله، وذلك اليوم كنت الفأر الذي وقع في المصيدة، وسار بقدمه إليها على الرغم من علمه بالمخاطر.

لا أعلم كم غبت عن الوعي، ولكن لم يُعدني للواقع سوى صوت بكاء أمّي فوق رأسي.

نحيبٌ خافتٌ لا يكاد يسمع، تسلّل إلى أذني قبل كلّ شيءٍ، ونبّهني للألم القاتل الذي شعرتُ به في كلّ شبرٍ في جسدي.

أتذكّر أنّها آخر مرّةٍ بكيتُ فيها حتّى اختفى صوتي.

لم أبكِ بعد ذلك اليوم أبدًا، حين أسقط، أو حين أُصاب إصابةً بليغةً وأتأذّى فلا شيء يساوي عذاب هذا اليوم، ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد، تَبلّدتُ كما يقال وأصبح الأمر روتينًا شبه يوميّ، حتى إنني لم أعد أقوى على اللّعب مع سامي، وكنتُ أحرم من رؤيته؛ لأنّني أصبحتُ تأثيرًا سيّئًا عليه كما قيل.

وصدمتُ حين وجدتُ نفسي مكروهًا من الجميع، ليس أبي فقط، بل جيراننا.. كنتُ أراهم يغلقون أبواب منازلهم واحدًا تلو الآخر بمجرّد رؤيتهم لي، ويمنعون أطفالهم من اللعب معي على الرغم من أنّني أشاهدهم يلعبون مع سامي بلا أدنى مشكلةٍ، على الرغم من أنّنا نحمل ذات الوجه.

ذات مرّةٍ، تكوّرتُ حول نفسي مخبئًا وجهي بين قدميّ؛ لأحميه من الرّكلات المتتالية وحبّات البرتقال والطماطم، التي كانت تضرب جسدي، وتُلقى عليّ بلا رحمةٍ وبلا أيّ اعتبارٍ؛ لكونها مشترياتهم وقوت يومهم، كثيرًا ما كنت أجد نفسي أقلق بشأن الطّعام المهدر، أكثر من القلق على نفسي بعد أن ينتهوا من رجمي به، وأبدأ بجمعِه لأضعه جانبًا لعلّ للحيوانات نصيبًا منه.

وأعود للمنزل ليتمّ توبيخي بسبب تأخُّري، وقد أتعرّضُ للضّرب من والدي الذي لا يكاد يعود للمنزل بوعيه الكامل، وبمجرّد أن يرى وجهي يستيقظ شيطانه، ويستعرُ جحيمه، ولا يهدأ سوى حين يرى جسدي مغطّىً بالدّماء.

ثمّ تأتي أمّي لتطبيب جراحي ومداواتي..

أحيانًا كانت تمرُّ من فوقي من دون لمسي، ويكفيها أن تتأكّدَ من كوني على قيد الحياة؛ لأنّها وقفت عاجزةً عمّا يمكنها علاجه فلا يوجد فراغٌ في جسدي لا يصبُّ دمًا.

ويتكرّر هذا الحدث حتّى أصبح هو حياتي، أعيش كنذير شؤمٍ، فإن لم يفرّ الجميع ويغلقوا الأبواب في وجهي، ويمنعوا أطفالهم من اللّعب معي! يقومون بإرسالهم لركلي ورجمي بكلّ ما تطاله أيديهم، حتّى أهرب أو يملّوا.

لم يكن لي راعٍ سوى أمّي، وصديقٍ سوى سامي، نقضي معظم أوقاتنا معًا ولا نفترق، حتّى ذلك اليوم..

جلستُ أسفل الشّجرة أُحدّق بالفراغ، تساءلتُ لِمَ آل حالي لِهذا، لِمَ يكرهني والداي بينما يحبّان سامي، ألستُ نصفه الآخر؟ ألم نولد بذات اليوم والسّاعة؟ والفرق بيننا عدّة دقائق..

لِمَ أخذتُ نصيبه من المعاناة والمأساة، وأخذ هو كلّ نصيبي من السّعادة والفرح؟

عندما كنّا صغارًا، اعتدنا على الهرب إلى المزرعة واللّعب حتّى الغروب، ثمّ نختبئ معًا في القبو كيلا يعثر علينا والدي، الذي لسببٍ ما يرى أنّني أقلّ استحقاقًا للحياة وللسعادة، ولا يجب عليّ اللّعب مع أخي أو التواجد حوله حتّى، على الرغم من أنّهم لم يصرّحوا بذلك ولكنّني كنتُ أعلم، شعرتُ بذلك واستطعتُ رؤيته في أعينهم، بكلّ مرّةٍ أطلب اللّعب معه، أو العدل بيننا، وكأنّني صاحب التأثير السيّئ، ولم يستمع لي أحدٌ أبدًا حين أخبرتهم أنّني بريءٌ، وأنّ سامي هو مَن كان يحثّني على كلّ شيءٍ، كان صاحب الفكرة دائمًا وكنتُ المنفّذ.

لا أخفيكم أنّني ظننتُ الوضع سيختلف في وقتٍ ما، ولكنّني علمتُ مؤخّرًا أنّ الجميع بلا استثناءٍ، منزعجون من وجودي، بل يكرهون حقيقة كوني على قيد الحياة، وبكلّ مرّةٍ يأتي زائرٌ لمنزلنا تطالني يده وقدمه وشتائمه، التي لا يخشى استخدامها على فتىً قليل الحيلة.

حتى إن بعضهم بدءوا باستغلالي لتغطية أفعالهم المشينة، ويتفقون جميعًا على أنّني السيّئ، على الرغم من علمهم جيّدًا أنّني بريءٌ براءة ذئب يوسف، ثمّ يجتمعون لعقابي على فِعلٍ لم أرتكبه، وأصبح الأمر يفوق طاقتي، ولم تَعُد كلمات أخي ومحاولاته لتهدئتي تُجدِي نفعًا بتسكين غضبي وألمي، لم أعُد أحتمل.

ذلك اليوم ظهر سامي أخيرًا من خلف الشّجرة وكنتُ مستاءً منه، أطلتُ الاختباء، وأنت لم تأتِ للبحث عنّي؛ لِذا مللتُ وخرجتُ.

- سامي: آسف تعبتُ من الرّكض وجلستُ لأستريح، أنت تعلم أنّني يجب أن آخذَ قسطًا من الرّاحة حين أشعر بالتعب، أمّي قالت إنّ قلبي صغيرٌ ولا يحتمل، هيّا لنعد للمنزل.

- لا! أمّي وأبي غاضبَان، لنبقى هنا حتّى يهدآ.

- سامي: لا تقلق، لن يفعلوا شيئًا.

هو ركض نحو المنزل ولحقتُ به على عجلٍ، متسائلًا عن سبب قهقهته وسعادته! لِمَ لا يمكنني أن أكونَ سعيدًا هكذا؟

حين دخلنا إلى المنزل لحقتُ به حتّى غرفة المعيشة، لأجد أمّي وأبي على المائدة بانتظارنا، بثلاثة أطباقٍ فقط، وحين جلس سامي

حُسم الأمر، لم يكن لي مكانٌ بينهم، شاهدتُ وجوههم تعبس، وماهي إلا لحظاتٌ حتّى طردني والدي.

صعدتُ لغرفتنا من دون أن أنطقَ بكلمةٍ، وكلُّ أملي أن يُهرِّبَ لي أخي بعض الطّعام لاحقًا، وبالفعل وجدتُ كوب حليبٍ وقطعة بسكويتٍ بجانب الباب وكان ذلك كافيًا لي، بل كنتُ شاكرًا لكونه ما زال يرى بي أخًا يكترث لأمره، لذا عزمت على مكافأته.

في موعد نومنا، قرأتُ له قصّته المفضّلة التي لم يعد أحدٌ يقرؤها لنا، كان مندمجًا بالاستماع لي، بينما نتشارك ذات الوسادة والسّرير والغطاء.

وفجأةً من العدم قفز من جانبي نحو فراشه واختبأ أسفل كومة الغطاء..

- سامي ما الأمر؟

لم أكد أنهي سؤالي حتى إندفع باب الغرفة لأنتفض بفزعٍ، دعوت الربّ كثيرًا بتلك اللّحظات، ألّا تكون هذه ليلةٌ أخرى من الضّرب المبرح.

تقدّم أبي خطوتين وزمجر من مكانه بغضبٍ:

- لا أريد سماع أيّ صوتٍ صادرٍ من هنا!

غادر وما زلتُ أسمع ترددُ صدى صوته يقرع في رأسي، استطعتُ سماع المشادّة الكلاميّة بينه هو ووالدتي، وَلَم أفهم ما دار بينهما، ولكن بعد دقائق طويلةٍ حين هدأت أصواتهم، سمعت صوت خطواتٍ تجاه غرفتنا؛ لِذا قلّدتُ سامي وتظاهرتُ بالنوم.

دخلت أمّي وجلست فوق رأسي كعادتها، بذات النّحيب وذات القطرات الساخنة من عينيها..

- آسفةٌ..

قالت بهمسٍ:

- أحبّكم بذات القدر..

كانت تبكي، وكان ذلك آخر ما سمعته منها، وَلَم أفهم ما حدث ولو فهمتُ لما نمتُ، لبقيتُ مستيقظًا طوال اللّيل وتمسّكت بأخي؛ لأنّني حين استيقظتُ صباح اليوم التالي لَم أجد أحدًا.

كان المنزل على حاله كالبارحة، ولكنّه فارغٌ.

أخذوا ثيابهمْ، وسامي، وتركوني..

ركضْتُ في أرجاء المنزل أناديهم، وَلَم أسمعْ سوى ترذّد صوتي على أذني.

خرجتُ للشّارع على أمل أن أجدَهم، أو يدلّني أيّ شخصٍ عليهم، سألتُ، بكيتُ، بحثتُ.. لَم يُجبني وَلَم يكترثْ لي أيّ شخصٍ..

هم رحلوا بلا عودةٍ.. وبقيتُ وحدي.

***

مرّ رجلٌ عابرٌ وسأل أحد سكّان الحيّ عن حاله، وقد تقطّع قلبه عليه وشعر بالشفقة..

- ما خَطبه؟ أراه كلّ يومٍ على هذه الحال! ما قصّته؟

نفض الرّجل يديه من أثر التراب، حيث كان يعتني بحديقته وقال:

- كانت حادثةً مأساويّةً، قيل بأنّه تسلّل إلى قبو منزلهم مع شقيقه التوأم وقتله هناك بسلاحٍ مخبأ في مكتبٍ قديمٍ، وانقلبث حياة أسرته إلى جحيمٍ، خصوصًا حين اشتُبه بالأب أوّلًا لكونه سِكّيزرًا، ولكن حين بدأ الفتى بالتحدّث للشُرطة، علموا أنّه يشكو من خَطبٍ ما، وأنّ رواية والديه كانت صادقةً، فقد كان في حالةٍ من الفصام التامّ، يعيش في عقله غير مدركٍ لما اقترفته يداه.

حاولوا جاهدين التعامل مع حالته وعلاجه بشتّى الطرق، ولكنّه كان يزداد سوءًا يومًا بعد يومٍ، وطوّر شخصيّةً عنيفةً لا يثّقون شرّها، سوى حين يقومون بحبسه في غرفته طوال اليوم.

تجنّبه الجميع بلا استثناءٍ، الصّغار قبل الكبار، وكانت حالته العقليّة والنفسيّة في انهيارٍ تامٍّ، حين حاول والده يومًا أن يواجههُ بما فعله، وأخذه إلى حيث بقعة الدماء في القبو، بدأ يشتم ويلعن، وضرب كلّ شيءٍ حوله، أصبح نسخةً أخرى من ابنهم، نسخةً لا يعرفونها، وتخيُلاته بأخيه لم تتوقّف، وَلَم تجذب سوى الحزن والمأساة.

فكما ترى يتحدّث مع أخيه الراحل وكأنّه موجودٌ، يستمر بذكره ومحادثته حتّى هذا اليوم، أسرته لم تحتمل هول المصيبة وثقلها، وذات يومٍ رحلوا فجأةً بلا أيّ تحذيرٍ أو سابق إنذارٍ، وتركوه هكذا يجوب الطُرقات، يتحدّث إلى نفسه، يضرب نفسه، ثمّ يسأل لِمَ فعلنا ذلك به! ويصرخُ ويشتمُ ويؤذي الجميعَ، وكأنّه مصابٌ بمسٍّ أو حالة ذُهانٍ عقليٍّ، ولكن مأساته لَم تشفع له، هذه الحادثة منذ أكثر من خمسٍ وخمسين عامًا، وما زال حتّى اليوم يقف خلف الأشجار، ويَعِدُ

حتّى العشرة، وينطلق باحثًا عن أخيه، لعلّك تراه رجلًا كبيرًا بالسنّ ومجنون كما يُدّعى ويُقال، ولكنّه خبيثٌ بخباثة ذئب ليلى وبريء براءة ذئب يُوسف.

دعوني أعيش

أنا الآن أعيش حياة الأحلام!

لن أضيعَ الوقت بالشّرح فستفهم في النّهاية، ولكن ما يهمّ هو أنّني أعيش أفضل أيّام حياتي، بدأ الأمر قبل أشهرٍ، عندما كنتُ على عجلةٍ من أمري صباح أحد الأيام، لألحق بمحاضرتي الجامعيّة باكرًا.

في تمام الخامسة فجرًا.. كنتُ أحمل هاتفي والحقيبة التي ألقيتُ داخلها دفتر الملاحظات، وجهازي اللّوحي والقلم الأزرق؛ الذي كنت أستخدمه منذ المرحلة الثّانويّة، وغادرتُ.

أعلم ما تفكّر به، الوقت باكرٌ جدًا، ومن يخرج للجامعة منذ الخامسة!

ولكن يا عزيزي.. أنا أردتُ مغادرة المنزل بكلّ ذرّةٍ في جسدي بأسرع وقتٍ ممكنٍ، وبالحقيقة تلك اللّيلة لَم أتمكّن من النّوم؛ لأنّني لَم أطق الانتظار لأغادر..

فوالدي.. لَم أعد أتذكّر نبرته الطّبيعيّة في التحدّث؛ لأنّه كان دائم الصّراخ على أيّ شيءٍ وكلّ شيءٍ! وإن لَم يجد سببًا ليغضب عليه، صدّقوني سيخرج سببًا من تحت الأرض.

يومٌ أسودُ!

هو اليوم الذي يتأخّر به سائق الحافلة -الذي يأخذ إخوتي للمدرسة- لدقيقةٍ واحدةٍ، تبدأ نوبته بالسبّ والشتمِ منذ السادسة صباحًا، ولا تنتهي سوى بقيلولته ظهر ذلك اليوم، ثمّ يستيقظ غاضبًا،

ونجد أنفسنا في مواجهة عاصفةٍ أخرى؛ لأنّ طعام الغداء ليس مالحًا بما يكفي، أو كثير البهار، أو حتّى لأنّه ليس الطّعام الذّي توقّعه! ثمّ نوبة غضبٍ وشتمٍ أخرى بالعصر وطوال المساء، وسائر أيّامنا مثل هذا اليوم.. سوداء.

وأبي هو أهون السيّئين، هناك أخي الأكبر الذي يحاول فرض سيطرته بكلّ الطّرق الممكنة، ويحاول التعويض بشكلٍ مستمرٍّ عن كونه عاهةً على وجه الأرض، لِمْ يُكملْ تعليمه من بعد المرحلة الابتدائيّة، أُمّيّ، لا يملك وظيفةً أو هوايةً أو أيّ مؤشّرٍ يدلُّ على أنّه بشرٌ مثلنا، له عقلٌ وإدراكٌ ووعيٌ!

مصدر دخله الوحيد هو الأموال التي يختلسها من أبي، أو الأموال التي يأخذها بالقوّة والتعنيف والإكراه من أختي التي تعمل معلّمةً، وهي ليست أفضلَ حالًا منه فرحلاتها المتردّدة للمشفى، ومركز الشُّرطة أصبحت روتينًا مللنا منه.

وحتّى هذا اليوم، أجهل السّبب الذي دفع أحدهم لاختيارها مُربّية أجيالٍ، فهي أسوأ مثالٍ لأبنائها، فكيف بها مع أبناء الناس؟

وعلى عكس جميع النساء الآتي يزيّن أصابعهنّ بالخواتم، لا أكاد أرى أصابعها تخلو من السّجائر، وهي وزوجها كالنّار تأكل بعضها، فيومًا هي تشتكيه في مركز الشُّرطة، واليوم الآخر يبرحها ضربًا حتّى يدخلها المشفى، ثمّ هناك أمّي وإخوتي الصّغار، قد يتبادر لذهنك أنّهم مستضعفون، ولكن هيهات.

أمّي هي الوقود الذي يستفزُّ أبي، والشّيطان الذي يوسوس لأخي الأكبر وأختي، ويحرّضهم ضدّ بعضهم، وأمّا الصّغار فهم كتلك القناة

التي عرفت بسرعة نقلها للأخبار الكاذبة، مع إضافتهم للبهارات والمنكّهات؛ حتّى يصبح الخبر غريبًا عن أصله، شائعاتٌ مثل أنّ منزلنا لا يخلو من زجاجات الخمر، لَم تصدز سوى من أفواههم الصّغيرة وألسنتهم القذرة، فأنواع الشّتائم التي لا تخطر على بالك، تجري على ألسنتهم كمجرى الهواء من أنوفهم، حتّى أصبحتُ أستنكر خروج كلمةٍ عاديّةٍ مهذّبةٍ من أفواههم.

أمّا أنا فأسوَأهم؛ لأنّني لَم أحاول تغيير أيّ شيءٍ، بل قرّرتُ الهرب.

اليوم!

هو اليوم الذي أنجو فيه بحياتي وأغادرُ هذا الجحيم، حقيبتي في السّيارة منذ أسبوعٍ، وبقيتُ أخطّط لهذا الهروب منذ أشهرٍ، فاليوم جدولي -الذي يحفظه أبي- مُمتلئٌ بالمحاضرات منذ الثامنة وحتّى الخامسة، ولكنّني سأتواجد في المحاضرة الأولى فقط لِأُبعد الشّبهات، بالوقت الذي سيدرك به أبي، أو أيّ شخصٍ من أسرتي تأخُري بالعودة للمنزل، سأكون بالفعل في أبعد نقطةٍ ممكنةٍ عنه، وعن هذا المنزل للأبد.

بالفعل في استراحة العشر دقائق للمحاضرة كنتُ في طريقي للسّيارة، في الحقيقة سيارة أبي التي أخذتُها بدلًا عن سيّارتي من دون علمه، وجهّزتُها بكلّ ما أحتاج إليه، حقيبة ثيابي، وطعامٌ معلّبٌ يكفيني لشهرٍ حتّى أستقرّ، وما جمعته من مكافأة الجامعة، حتّى تأكّدتُ من مقدرتي على تحمُّل هذه المخاطرة، ولكون والدي لا يستخدم السّيارة ولا يكاد يغادر المنزل، لَم يلحظ أحدٌ.

بدأتُ بخلع الرّداءِ الرّسميّ لطلّاب الطبّ، وارتديتُ لبسًا رياضيًا

بسرعةٍ؛ لأكون مرتاحًا أكثر وحتّى لا..

- ياسرا!

تضاعفت ضربات قلبي حين ظهر من خلفي جازنا وزميلي في التخصُّص (حمد)، والتفتُّ له..

- حمد.. أ أهلًا، ما الأمر؟ أفزعتني!

- بل أنتَ الذي أفزعني! اتصل أخوك منذ قليلٍ ليسألني عنك، قال: بأنّ سيارتك ما زالت أمام المنزل، وسألني إن كنت قد رأيتك أو أقلّيتك معي للجامعة!

عيني كانت تدور حوله لا إراديًا، وتفحّصت المكان حولنا مرّاتٍ متعدّدةٍ بشكٍّ! لست واثقًا من ظهوره المفاجئ أمامي، خصوصًا وهو يملك تاريخًا طويلًا بالوشاية ونقل أخباري أوّلًا بأوّلٍ.

- وماذا أخبرته؟ سألت مقطّبًا حاجبيّ.

- أخبرته أنّني لَم أرك بالطّبع! هل ستغادر؟ ما الذي يحدث معك تبدو في عجلةٍ من أمرك!

- لا شأن لك! أقصد.. لا تشغل بالك بي، سأعود للمحاضرة.

ذهب وركبت السّيارة، وأغلقت الباب بينما أشاهده في انعكاس المرآة عائدًا نحو الكليّة، وأنا أدعو ألّا يخرج هاتفه ويتصل بأحدهم الآن، راقبته حتّى دخل المبنَى، وأدرت المحرّك مغادرًا المواقف، وانطلقت بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ.

الثامنة وخمس وأربعون دقيقةً صباحًا

آه.. يا للازدحام في شوارع الرّياض!

على الرغم من أنّني حسبتُ وخطّطتُ لكلّ شيءٍ بدقّةٍ منذ لحظة خروجي، وفكّرتُ بأصغر التفاصيل، فإنّني لَم أُفكّر بشوارع الرّياض وازدحامها، وأنّها ستعطّلني وتُؤخّر هروبي بلا شك، فتحتُ تطبيق الخرائط غير آبه بالمخالفات التي ستلحق بمالك المركبة، وتفقّدتُ الشارع لأجده أحمر كسائر الشّوارع الرئيسية في هذا الوقت، وقت خروج الموظّفين إلى مقرّ العمل، بالإضافة إلى وجود حادثٍ يسدُّ المخرج الذي سأسلكه، ما هذا الحظّ!

الثامنة وخمسون دقيقةً

ما زلتُ عالقًا في الازدحام، قدمي المثبّتة تهتزُّ لا إراديًا، وعيناي تدوران في مكانهما في محاولةٍ لِلَمح أيّ مَخرجٍ، أو طريقٍ يسرّع في خروجي من هذا المأزق، ولكن.. لا فائدة!

التاسعة وعشر دقائق

تنفُّسي أصبح ثقيلًا، وَلَم أبتعد حتّى الآن بالقدر الكافي من الجامعة! ضربات قلبي في هذه اللّحظة تكاد تكون مسموعةً، وما زاد الوضع سوءًا، هو استمرار هاتفي بالرّنين، والمتصل هو أخي، وانضمّ له بعد دقائق أخرى أبي، لا بدّ من أنّهم اكتشفوا أمري، ولكن كيف!

هل يعقل أنّ.. (حمد) الواشي!

لا بدّ أنّه اتصل وأخبرهم بكلّ شيءٍ بمجرّد دخوله للكليّة، ومتأكّدٌ أنّهم لن يدعوني وشأني أبدًا، عليّ الهرب الآن قبل أن يُبلغوا الشُرطة، أبي سيرفع بلاغ سرقةٍ على سيّارته، وسينتهي أمري حينها، لا أتخيّل

الحياة التي سأعيشها إن عدتُ لحفرة الجحيم تلك المسمّاة بالمنزل بعد ما فعلتُ، حتّى هذا اليوم نجوتُ منهم؛ لأنّني لَم ألفت الانتباه يومًا، ولا أكاد أتحدّثُ أو أتواصلُ معهم بأيّ شكلٍ من الأشكال، ولكن الآن سأكون مركز تركيزهم، وهذا آخر ما أحتاج إليه، سيكون الموت أرحم بي منهم؛ لهذا وجب عليّ الهرب، يجب أن أحاولَ الوصول ل (حيّ بني اليمين) حيث أستطيع التخلُّص من السيارة، والعثور على شخصٍ من المدعوّين ب (الكدّادين) ليأخذني لمدينةٍ أخرى.

كنتُ في حالةٍ من اليقظة والتأهُّب بسبب الفزع والقلق، وحدة التبريد تعمل على أعلى درجةٍ وما زالت حبّات العرق تتكوّن فوق جبيني، حتى تنزلق ليمتصّها نسيج قميصي الذي تشبّع، دويّ صفارات الشُرطة المفاجئ القادم من الشارع خلفي، كان القطرة التي سقطت في وعاءٍ مسبّبةً ظاهرة التوتُّر السطحيّ، وزلزلت بذلك آخر ذرّة عقلٍ متبقّيةٍ بداخل رأسي.

مخرج!

رأيتُ نافذة هروبٍ صغيرةٍ بين السّيارات على يميني، وفورًا انعطفتُ بالسّيارة متجهًا نحو المخرج، غير آبه بتزمير صاحب السّيارة التي خدشتُها في أثناء انعطافي، وانطلقتُ بأقصى سرعةٍ، وتخطّيتُ الحدّ المسموح به، وكما توقّعتُ!

ها هي سيارة الشُرطة تظهر من بعيدٍ من ذات المخرج، كنتُ متأكّدًا من أنّهم يسعون خلفي، يريدون الإمساك بي!

زِدتُ من سرعتي وأصبحتُ قيادتي جنونيّةً، على الرغم من أنّ الشارع الذي أقود به مليءٌ بالحفريّات، والتحويلات واللّوح

التحذيريّة وَلَم أكترثْ، لا أعلم ما الذي كنت أفعله، ولكن عقلي دخل بحالة استنفارٍ للهرب مهما كان الثّمن..

لَم أنتبه لكوني أقود بسرعة مئةٍ في شارعٍ تحت الإصلاح، حتّى لمحت بطرف عيني ذلك الطرف الحديدي العملاق من سيارة البلديّة المسماة بال (دركتر)، يعترض طريقي مقتلعًا بذلك جانب السيّارة الأيمن بأكمله..

لستُ متأكّدًا ممّا حدث، ولكن حين فتحتُ عينيّ متنبّهًا لصوت سيارة الشُرطة تقترب، كان جسدي أسفل باب السّيارة الذي اقتلع من مكانه وقذف به معي، الألم لا يحتمل، ولستُ متأكّدًا من سلامة جسدي ووعيي، ولكن لَم يكن هناك وقتٌ للتوقُّف، أطلقتُ قدمي للرّيح بمجرّد أن التقطتُ حقيبتي، التي ألقى بها الحادث جانبي لحسن الحظّ، ركضْتُ حتّى تنمّلت قدماي وبدأتُ أفقد الشُعور والتحكُّم بها،

ولكن تساءلتُ مرارًا وتكرارًا: أين أنا؟ وكيف سأصل ل (حيّ بني اليمين؟) وكيف سأنجو من هذا المأزق؟

تلاشى صوت سيارات الشرُطة بعد مدّةٍ طويلةٍ من الهرب على قدمي، وحرارة الشّمس المسلّطة على جبيني، أنهكتْ جسدي والمتبقي من وعيي، ألهث وأحاول الصمود، سأرضى بالموت على هذا الطّريق فضلًا عن العودة لذلك الجحيم.

لمحتْ بعقلي فكرةً وَلَم أتردّد بتنفيذها، دخلتُ لأحد المباني التي لَم يكتمل بناؤها بعد، واختبأتُ.. على الأقل حتّى تخفّ حرارة الشّمس، ولأرتاح قليلًا من ضربة الحادث تلك، سأكون في طريقي بمجرّد

اقتراب الغروب، ولكن يا للأسف باءتْ خطّتي بالفشل حين عادتْ صفارات الشُرطة تصدح بالمكان حولي، لأجد السّيارات تدور حول المبنَى، وبعض رجال الشُرطة بالفعل يقتربون من مكان تواجدي، كنتُ أعلم أنّهم لن يتوقّفوا عن البحث عنّي، كان يجب أن أستمرّ بالهرب.

تسلّلتُ لأختبئ، أسفل كومةٍ من الأخشاب والمعدّات المركونة قرب أحد المخارج، وبقيتُ أستمع لحديثهم مع بعضهم، ونداءهم المستمر باسمي: ياسرا

حاولتُ إخفاء صوت أنفاسي، بينما يمرُّ أحدهم من جانبي..

الشُرطيّ:

- لا يعقل حتى إنه نجا من هذا الحادث!

أجابه الآخر:

- أجل، إن كان هناك أملٌ لنجاته، هو أن يستجيبَ لنا لو كان هنا.

ضحكتُ في سرّي، لن أثقَ بهم أبدًا ما حييتُ.

بقيتُ حتّى طال بحثهم وصعدوا للطّابق الثّاني، وخرجتُ من مكاني مطلقًا قدمَيّ للرّيح مغادرًا المبنَى..

استطعتُ سماعهم، ولحسن الحظّ نجحتُ بالهرب منهم.. وسأنجح دائمًا.

أعلم أنّهم يحاولون النّيل منّي وجرّي للهاوية معهم، يريدون أن يعيدوني لتلك الحفرة التي كنت أعتقد بأنّها حياة، لا يهتمّون لي

حقًّا، وكل ما يسعون خلفه هو الاستفادة من مأساتي، مرّث أشهر وأنا أنجح بالهرب منهم بكلّ مرّةٍ يقتربون فيها من القبض عليّ بأساليبهم الملتوية..

أنا الآن أفعل ما أريدُ كما أريدُ، وكما أتخيّلُ وأعيشُ أفضل حياةٍ ممكنةٍ.

بكاءٌ وعويلٌ

ووجوهٌ شحبت من كثرة البكاء الذي لَمْ يعلم أحدٌ بأنّه بكاءٌ زائفٌ، ذلك الرجل ذو المعطف الأبيض، اقترب من الأسرّة الحزينة المفجوعة ظاهرًا، والطامعة بأموال التعويضات سرًّا، وقال:

مرّث ثلاثة أسابيع وجسده يقاوم العلاج، وبكلّ مرّةٍ نقترب من الحصول على استجابةٍ، تسوء حالته، الاستمرار بذات الخطّة العلاجيّة سيقتله، ولا يوجد حلٌّ آخر، وأخشى بأنّه سيبقى في الغيبوبة للأبد، سنزوّدكم بالتقارير اللازمة، ونؤكّد لكم أنّ إهمال معايير السلامة على ذلك الطّريق، هي ما أدّث لهذه النّهاية المأساويّة، وتقاريرنا ستدعم قضيّتكم ضدّ بلديّة إصلاحات الشّوارع، وآمل أن تحصلوا على المواساة التي ستجبر قلوبكم، ولكن كما تعلمون لَمْ يكن هناك أملٌ منذ البداية، أعتذر منكم.

***

أستطيع سماعهم!

وبوضوحٍ! يتحدّثون فوق رأسي، يناقشون أمري، ويصرُّون على عودتي إليهم..

يحاولون كلّ جهدهم حتّى ينتشلونِي من هذه الظُّلمات التي يسمُّونها.. غيبوبة..

فما بدا لهم مقاومةً.. كان هربًا،

يريدون إيقاظي، ولكن.. ماذا لو لَم أكن أريد أن أستيقظَ؟

اليوم 5696

لَم أعتقد أنّني سأصمد حتّى هذا اليوم..

أتذكّر أنّنا كنّا في العام (2098) حين حدثت الكارثة، واضطُررنا لِلعيش مع تداعياتها لقرابة الخمسة عشر عامًا، يومًا بعد يومٍ، ساعاتٍ تحوّلت إلى أيّامٍ وأسابيع وأشهر، حتّى تيقّنا بأنّنا في هذا الأمر الواقع ولا مخرج لنا منه.

في البداية حاول الناس التكيّف مع هذا الواقع الجديد الغريب، كنّا نحاول بيأسٍ أن نخلقَ بيئة تواصلٍ بشريّةٍ طبيعيّةٍ، ولكن الملل كان يقتل كلّ شيءٍ، المحادثات ضجّت بمواضيع منسيّةٍ، وعدنا لعاداتٍ تركت في عصر تمرير الرسائل عَبر البريد والتحدُّث للجيران عَبر النافذة، أعاد الناس اكتشاف جوانب افتقدتْ وكادتْ تتلاشَى، كنتُ ألاحظ أنّني بدأتُ أنسى معنى تعابير الوجه والتواصلِ الحقيقيّ.

كان الوضعُ مقبولًا لوقتٍ طويلٍ، ولكن مع مرور الوقت، بدأنا نشهد حالاتٍ غريبةً، وبدأت بعض التداعيات تلقي بظلالها على مَن اضطُروا لمواجهة الواقع المنعزل القاسي يومًا بعد يومٍ، بعيدًا عمّا اعتادوا عليه، ظهرت أعراض الانسحاب على شكل أصابع مرتجفةٍ، وأيادٍ تهتزُّ في الجمعات حتّى ينسكب محتوى الأكواب التي يحملونها، ظهرتْ في انفجاراتٍ لا منطقيّة، ولحظات غضبٍ أو توق مضطّربٍ لمقامرٍ يتعافى، أو مدمنٍ يعاني أعراض الانسحاب، أصبح الأصدقاء والعائلة شهودًا قلقين على هذا الصّراع.

وَلَم يكن هذا كلُّ شيءٍ، كانت البداية فقط!

فحين شغل الجميع بالفئة الأولى، كانت أيدي الفئة الثّانية تعمل بالخفاء، كتيار كهرباءٍ ساكنةٍ مشئومٍ يتسرّب عَبر المجتمع ليضربه على حين غفلةٍ، ذلك الفراغ المجهول كان نعمتهم، وكأن السّتار أُسدِلَ عليهم وأصبحوا بمأمنٍ من أعين المتطفّلين، كانوا مقيّدين في السّابق، أمّا الآن فهي فرصتهم ليعثوا في الأرض فسادًا، فرصتهم لارتكاب جرائم لن يسمعَ بها أحدٌ، ولن يعلمَ عنها شخصٌ، وستبقى طيّ الكتمان، ويبقون مختبئين تحت ستارٍ أسود مبهمٍ.

التصق الخوف من المجهول بقلوب من غامروا بالخروج من منازلهم وكنتُ أوّلهم، أصبحت الشّوارع التي كانت مألوفةً في يومٍ من الأيّام غريبةً ونذير شؤمٍ، أغلق الناس أبوابهم، وهم ينظرون من فوق أكتافهم، حذرًا ممّا يختبئ في الظلّ.

ومع ذلك، حتّى في وسط هذه الفوضى والمعمعة وعدم اليقين، استمرّ أملنا في كلّ ليلةٍ، بينما كنّا نضع رءوسنا على الوسائد، نتشارك ذات الدّعاء وذات الأمنية.

الوقت أصبح قاتلًا، تجد البعض يبكون كلّ ليلةٍ حتّى يفقدوا وعيهم رغمًا عنهم، يتوقون إلى الفجر؛ لأنّ تلك الظُّلمة وحدها كانت تكفي وهي أكثر ممّا نحتملُ، حلمنا بالماضي وبعودته وباستيقاظ هذا الوحش النائم من غيبوبته، وينفض الوسن عن عينيه حتّى يتنفس العالم الصعداء.

وعلى الرغم من يقيني أنّ ندوب هذا الوقت ستبقى إلى الأبد في الذّاكرة الجماعيّة للبشريّة بأكملها، فإننا قد عانينا من أزمةٍ أجبرتنا على مواجهة أنفسنا قبل مواجهة العالم، ومواجهة ذلك الوحش

النائم بداخلنا قبل وحشة العالم وسوداويّته، أجبرتنا على النظر بعمقٍ إلى الفراغ المعتم الكبير الذي نعيش فيه، وقد أعمثنا عنه حقيقةٌ واحدةٌ، وبدونها نهيم في ذلك الفراغ تائهين للأبد، وقد يسلب بعضٌ منّا حياته من نفسه لأنّه بكلّ بساطةٍ لَم يَعُذ يحتمل.

والأسوأ أنّنا إن نجحنا في مواجهة أنفسنا، فسيتحتّم علينا مواجهة الآخرين والاصطدام بالجوانب المظلمة للطّبيعة البشريّة، التي انتشرث وتشعّبث وتغلْغث في تلك النفوس الفاسدة في ذاتها.

قبل خمسة آلافٍ وستّ مئةٍ وتسعٍ وستّين يومًا..

لَم أعتقذ أبدًا أنّني سأنجو في عالمٍ كهذا، وتلك الأمور التي اعتقذتُ بأنّني لن أكونَ قادرًا على مواجهتها باتث لا شيء مقابل ما مررتُ به، وعلى الرغم من أنّني اعتذتُ بعد أن فقذتُ أسرتي لجوانبها المظلمة، للشرّ وللانتحار وضعف النفس البشريّة، فإنّني حتّى اليوم أدعو كلّ ليلةٍ أن يكونَ الغد مختلفًا، أدعو أن تعودَ الحياة لمجراها.. ويعود الإنترنت.

ضربة قاضية

قبل الحادثة

- أعدك.. أنا وأنتِ سنحظى بسنويّةٍ لا تنسى..

جذب السيّد عارف زوجته ليحتضنها كمحاولة إرضاءٍ يائسةٍ، بعد أن علمث بأنّه سيأخذها بذكرى زواجهما، إلى مهرجانٍ عاديٍّ يعاكس التوقُّعات التي قامث برسمها في مخيّلتِها.

الحركة المفاجئة لمقبض باب المنزل جذبت انتباههما، وبصدمةٍ ترقّبا حركة الشّخص المتسلّل لمنزلهما أمام أعينهما.

- عذرًا هل يمكنني مساعدتك يا آنسة؟

نداء صاحب المنزل أفزعها لتستدير ملتصقةً بالباب، ونظراتها دلّث على صدمتها لوجودهما.

- آ.. آسفة، دخلت مباشرة لأنّني اعتقذث أنّكما غادرتما بالفعل.

تلعثمث لينظرا لها بريبةٍ أكثر.

- آ.. أنا.. (نِيل) صديقة جليسة ابنكما، لقد طَلبث منّي أن أسبقَها إلى هنا، وهي بالخارج تحاول العثور على مكانٍ لركن السّيارة، قالث إنّكما غادرتما بالفعل؛ لِذا لَم أضرب الجرس قبل دخولي، وَلَم أرد إزعاج ابنكما، أعتذر..

فُتح الباب مرّةً أخرى لتظهر تَجلى الجليسة بكدمةٍ على وجهها، وبطريقةٍ ما، لَم تكن متفاجئةً لوجودهما، وقالث بارتباكٍ:

- أهلًا.. عذرًا كنتُ أركن السّيارة، أتمنّى ألّا تمانعا وجود صديقتي، طلبتُ منها مرافقتي؛ لأنّكما ستغيبان حتّى الغد، وأنا سأشعر بالمَلل لِذا..

قاطعتها سيّدة المنزل التي تَضجّرتْ بالفعل:

- لا.. لا مانع أبدًا، سأطمئن أكثر لوجود فتاتَين بدلًا من واحدةٍ مع ابني، رمقت السيّدة زوجها بنظرة ارتيابٍ معتادةٍ، وتركتهما لتنهي استعدادها، وَلَم تنتبه لنظرات زوجها المريبة لِلفتاتين.

أنهتْ شرح الإجراءات الاعتياديّة للجليسة من باب الاحتياط، من نظام الفتى وموعد نومه وعلاجاته خصوصًا إبرة الأنسولين، حتّى أرقام الطوارئ، وكرّرتْ لمرّاتٍ متعدّدةٍ منبّهةً للفتاتين، أنّ اليوم هو ذكرى زواجهما السابع عشر، وأنّها لا تريد أن يفسدَ يومها أيّ شيءٍ، خصوصًا وبكلّ مرّةٍ يردها اتصالٌ مِن تَجلى تخبرها أنّ ابنها يفتعل المشكلات.

أنهت سيّدة المنزل شرح كلّ شيءٍ، وتوجّهتْ لغرفتها لتنهي استعداداتها الأخيرة، تاركةً الفتاة خلفها في غرفة المعيشة، بينما زوجها كان في طريقه لخارج المنزل مارًّا بغرفة المعيشة، وفي تلك الأثناء تحديدًا حين عادت سمعتْ ذلك الهمس: تصرّف! إن لَم تتصرّف سأفعلُ!

وحين خطتْ نحو الصّوت، وقبل أن تحطّ عيناها على الحدث نفسه، كل ما سمعته هو صوت باب المنزل.

في تمام الثالثة فجرًا، المُحقّق

السيّد عارف العزّاف وزوجته عادا لمنزلهم بعد اتصال الشُرطة المفاجئ لهم، واضعًا حدًّا لأمسيتهم حين علموا بما حصل بمنزلهم في أثناء غيابهم.

الجثّة الهامدة بلا حركةٍ على أريكة المنزل، وفتاةٌ تنتحب بصمتٍ، ورجال الشُرطة بكلّ مكانٍ، وتلك العدسات الفضوليّة لمَن لا يكاد يصدّق حدوث أمرٍ ما، بمنزل المترشّح الأوّل للانتخابات، كان هذا المنظر الذي استقبلهم.

الضحيّة شابّةٌ بمقتبل العشرين، تعرّضت لضربةٍ مميتةٍ بالرأس ممّا أدّى لفقدانها للوعي والوفاة، سلاح الجريمة لا بدّ من أن يكون أداةً قويّةً كعصى خشبيّةٍ أو أداةٍ ثقيلةٍ، والقاتل لَم يتردّد بتسديد الضّربة، بل فعلها بدقّةٍ وبكامل قوّته ليتسبّب بموتها منذ الضّربة الأولى، وحتّى الآن هذا ما نعلمه جميعًا عمّا حدث.

ثياب الضّحية لا تناسب حجمها ولا حتّى ميزانيّتها؛ نظرًا لعملها جليسةً من أجل المال، إمّا أن تكون قد استعارت الثّياب، أو الخيار الأكثر ترجيحًا أنّها قامت بتبديل ثيابها بأخرى لا تناسبها.

تخطّيت الجميع لأقرب دورة مياهٍ بالطّابق الأرضيّ متّبعًا حدسًا صغيرًا، وبالفعل وجدتُ ثيابًا متواضعةً معلّقةً هناك، ممّا يعني أنّ هذه الثّياب تعود لسيّدة المنزل والضّحية قامت بارتدائها، وهذا أمرٌ جيدٌ، غالبًا حين تستبدل ثياب الضّحية يكون ذلك لإخفاء آثار الاعتداء وتمزّق الثّياب، كما أنّ جسدها بحالةٍ جيّدةٍ ولا أثر للضّرب وغيره، فقط أثر التورّم على وجنتها والذي يبدو أنّه أثر خلافٍ حديثٍ.

الحراسة ليست جيّدةً، ولكنّها ليست سيّئةً، لا يمكن لأحدٍ غريب

الدُخول ما لم يكن أحد أفراد الأسرة أو الأقرباء، ولكن هناك نافذةٌ صغيرةٌ للاحتمالات إن كان القاتل جاء من الخارج لعلمه بعدم تواجد أسرة العزّاف، ولكن لَم يتوقّع وجود جليسة ابنهم؛ لِذا قتلها وفعل ما جاء لأجله.

أستطيع الإشارة إلى عشرات الأغراض ثمينةً على مرأى بصري، ولكن كلّ ما فقد من المنزل قلادةٌ من الياقوت.

السيّدة أبلغت عن فقدانها للقلادة بعد عودتها ورؤيتها للضّحية ترتدي ثيابها، ذهبت لتفقُّد غرفتها وَلَم تجدها عندما بحثت عنها، حين وصل الفريقُ الجنائيّ لَم يكن هناك أيّ شخصٍ غيرهم، ولا يوجد علاماتٌ لأيّ اقتحامٍ أو تخريبٍ، ممّا يعني أنّ القاتلَ أو السّارقَ علم جيّدًا ما الذي يبحث عنه وأين! ولكن ما هو؟

- أين المشتبه بهم؟

سألتُ أحد رجال الشُرطة، وأخذني خلفه نحو غرفةٍ بالأعلى، وشرح الوضع لي باختصارٍ:

- صديقة الفتاة المقتولة نِيل هي من قامت بإبلاغ الشُرطة عمّا حدث، وكانت هي المتّهمة الوحيدة هنا، حتّى علمنا من السيّد والسيّدة أنّهما افترقا بالمهرجان لنصف ساعةٍ أو أكثر، وَلَم يجدا بعضهما بسهولةٍ، ويزعم السيّد العزّاف أنّ هاتفه فرغ من الشّحن، وزوجته قالت بأنّها كانت تبحث عنه حتّى وجدته قرب البوابة صدفةً!

وعلمتُ للتوّ بأنّ المهرجان يبعد عشر دقائق من هنا بالسّيارة، وأقل

من ذلك سيرًا على الأقدام، وهذا يعطي وقتًا أكثر من كافٍ لكليهما ليعود ويرتكب الجريمة، بالتأكيد سيكون الوقت أكثر من كافٍ لارتكاب الجريمة وإخفاء الآثار حتى، ولكن ما الدافع هنا؟

قد يكون الغيرة، أو قتلًا عن طريق الخطأ؟

عبرنا بممرٍّ نحو غرفة الفتى المراهق، حيث اجتمع المتّهمون حتّى تنتهي الشُّرطة من جمع الأدلة، وحتّى نتحدّث لهم جميعهم.

غرفةٌ بسيطةٌ جدًّا لفتىً بالرّابع عشر ربما، ولا يوجد الكثير ممّا يلفت الانتباه، سرتُ حول الغرفة لتفقُّدها تحت نظراتهم الفضوليّة والمرتعبة، كلُّ شيءٍ هنا خشبيٌّ، أي إنّها ليست غرفةً معدّةً خصّيصًا له، وهذا غريبٌ بالنسبة لأسرةٍ غنيّةٍ مثلهم!

بعض الرُّسومات معلّقةٌ على الحائط، بالإضافة لكأس بطولةٍ رياضيٍّ يحمل اسم الفتى، في وضعٍ على الرفِّ الأعلى بمكتبه، بجانب صورةٍ له مع والده بإحدى مباريات البيسبول، بعض الصُّور الأخرى مع أسرته، أصدقائه بالمدرسة والحصص الرياضيّة، لا شيء يثير الرّيبة.

الفتى نائمٌ حتّى الآن بينما تحتضنه والدته بقلقٍ، وزوجها بدأ مهمومًا للغاية، ثمّ هناك الفتاة (نيل) على المقعد الجانبيّ تنظر لنا بتوتُّر.

هناك غيمةٌ سوداء من الكذب وإخفاء الأسرار والتلاعب بهذه الغرفة، وفرصة كشف القاتل بسرعةٍ ببيئةٍ كهذه مرتفعٌ للغاية، جميعهم هنا لديهم أسرارٌ يخشون انكشافها؛ لِذا التكتُّم والتحفُّظ بادٍ

عليهم وعلى لغة أجسادهم، وإن كانوا أبرياء لن يتغيّرَ الوضعُ النفسيُ لأيٍّ منهم تحت الضغط.

عدا أنّ القاتل سيعتقد بأنّهم جميعًا بأفضل حالٍ، وهو فقط مَن يستشعر رهبةً وقلقًا أكبر، وسيبدأ بالاستجابة لخوفه من دون أن يشعرَ، معتقدًا أنّه يتحكّم بذاته بشكلٍ جيّدٍ.

تنهّدتْ مستديرًا للفتاة أوّلًا، لنبدأ إذً: نيل

- أخبرينا عمّا حدث؟

نشقتْ أنفها وشابكتْ يديها معًا بتوتُر:

- لا أعلمُ ما الذّي حدث صدقًا، تَجلى قامتْ بدعوتي لقضاء اللّيلة معها؛ لأنّ السيّد والسيّدة سيتأخرّان إلى صباح اليوم التالي، ووافقتْ، لَمْ تقلْ لِمَ، وَلَمْ أعلمْ أنّها ذكرى زواجهما سوى حين وصلنا إلى هنا.

قضينا المساء بشكلٍ طبيعيٍ، الفتى كان أكثر هدوءًا عن عادته، أراد الجلوس واللّعب على جهازه، وَلَمْ يتحدّثْ كثيرًا معنا على الرغم من محاولات تَجلى معه، فإنّه استسلم ولعب معنا أخيرًا..

تناول العشاء وقال بأنّه يشعر بالنعاس وبدا متعبًا للغاية؛ لِذا صعد إلى غرفته وتأكّدنا من كونه نائمًا، ولا يحاول الهرب من النافذة أو شيءٍ من هذا القبيل كبقيّة المراهقين، ثمّ عدنا للأسفل.

بدأتْ بتحضير الفشار، تَجلى أخبرتني أنّها ستذهب لدورة المياه ثمّ تعود لتشغيل الفيلم، لكنّها اختفتْ عن نظري لمدّةٍ.. عادتْ بعد دقائق ترتدي قميصًا ووشاحًا لِلسيّدة، وَلَمْ أقلْ شيئًا لأنّني مللتُ من إخبارها

أن تتوقَّفَ عن التسلُّل لغرفتهما والعبث هنا وهناك.

بعد دقائق أخرى سمعت صوت إغلاق باب المنزل، وسألتها فأجابت بصوتٍ مرتفعٍ بأنّها البيتزا التي طلبتها، شككتُ بالأمر لأنّني لَم أسمع الجرس، ولكنّني لَم أفكّر كثيرًا، ذهبتُ لها وقبل مشاهدة الفيلم تشاجرنا قليلًا؛ لأنّها قامت بسكب الشّراب فوق الوشاح والسجّاد والأريكة، وَلَم أرد الوقوع بأيّ مشكلةٍ هنا، أسرتي كانت ستغضب فقط لعلمهم بتواجدي بمنزل أسرة العزّاف.

نظراتٌ غاضبةٌ طالتها من السيّدة التي استمرّتْ بجذب ابنها واحتضانه بصمتٍ، لا تبدو كسيّدةٍ تُقدِمُ على تلطيخ يديها بدماء أحدهم، ولكن وفقًا لتحليل سلوكها النفسي، هذا الكمُّ من الغضب المكبوت داخلها والذي تحاول جاهدةً إخفاءه، قد يقودها لتهشيم رأس أحدهم تمامًا كما وجدنا الضحيّة.

-أخبرتُها أنّني مللتُ تصرُّفاتها وأنّني سأغادر وَلَم تكترثْ، لِذا جمعتُ أغراضي وذهبتُ لدورة المياه لمرّةٍ أخيرةٍ. أكملت نيل.

لَم أطل استخدامه، ولكنّني وجدتُها.. حين عدتُ.. كانت..

تلعثمتْ أخيرًا وبدأت بالبكاء.

-كنتُ خائفةً لِلغاية وأردتُ الهرب للخارج، لَم أعلم ما الذي يجب عليّ فعله، لكن لَم أفكّر كثيرًا وذهبتُ لفعل الأمر الصّحيح وهو الاتصال بالشُّرطة فورًا، أجاب الضّابط وقمت بإخباره بما حدث، ثمّ أتى لعقلي بعد مدّةٍ أنّ الفتى نائمٌ هنا، وأنّ الشّخص الذي قتلها ربما سيذهب له، أو سيفعل المثل لي وربما ما زال بالمنزل، لِذا ركضْتُ

لأتفقّده وحين وجدته نائمًا أقفلتُ الباب علينا وانتظرتُ.

سردتُ كلّ شيءٍ بالتفصيل ممّا يجعلها موضعًا للشكّ لي، فعادةً لا يتذكّر أحدهم تفاصيل كهذه سوى حين نبدأ بسؤالهم أسئلةً أكثر تحديدًا، خصوصًا وهي تبدي الخوف والندم وكأنّها هي من تسبّبت بموتها! ولكنّها قد تكون بهذه الدقّة بفعل تأثير الصّدمة.

- ماذا عن الكدمة بوجهها؟ قِيل بأنّكم تشاجرتم سابقًا بذات المساء.

راقبتُ النظرات المتبادلة بينها هي والسيّد العرّاف، الذي أخبر رجال الشُرطة سابقًا بسبب الكدمة وطلب إبقاء الأمر بينهم.

نيل، استجابتُ للسؤال بآلية دفاعٍ بلا وعيٍ، عقدتُ ذراعيها لصدرها قبل أن تجيبَ:

- هل تعتقد أنّني قتلتُها لأنّني صفعتُها! شجارنا كان أمرًا مختلفًا تمامًا، ولكنّها صديقتي ولو لَم أكترثْ لأمرها لما تشاجرت معها خوفًا عليها.

سرقت نظراتٍ للسيّد الذي بقي يرمقها بحقدٍ يتسرّب من عينيه، وهي تتحدّث وكأنّه يعلم شيئًا لا نعلمه.

- هل هذه المرّة الأولى التي تأتين فيها برفقتها؟

ترددتُ لوهلةٍ قبل أن تستسلمَ وتجيبَ:

- لا.. طالما أتيت إلى هنا معها، ولكن من دون أن نخبرَ أحدًا، هي لَم ترد إثارة المتاعب؛ لِذا كانت تسمح لي بالدُخول خلسةً بعد ذهابهم بكلّ مرّةٍ، وكنت أخبئ أغراضي في إحدى الخزائن السّريّة.

هذا منطقيٌ، فقد ذكرتْ بأنّها ملّت من تصرُّفات صديقتها، ويستحيل أن يكونَ ذلك ناتجًا عن مزّةٍ واحدةٍ.

والفتى لَمْ يشِ بكمْ إلى والديه أبدًا؟ سألتها..

- لا.. كان يقضي وقتًا ممتعًا معنا بألعاب الفيديو والمرح كما يشاء، وكان يبتزُّنا؛ لِذا كان ينتفع ويطلب منها التستُّر على تسلُّله من المنزل، للمبيت لدى أصدقائه وبالمقابل لن يخبرَ أحدًا.

استياء السيِّدة كان واضحًا عليها، بينما لَمْ يمانعْ زوجُها أبدًا حقيقة وجود غريبةٍ بمنزله لوقتٍ طويلٍ من دون أن يعلمَ.

- إذًا ما زال الفتى نائمًا ها؟

هذا غريبٌ فنحن نتحدّث فوق رأسه منذ دقائق، والمنزل يعجُّ بالأشخاص وَلَمْ يستيقظْ!

- أجل، أجابت والدته

- لا بدّ من أنّه أفرط باللّعب حتّى أجهد نفسه.

اقتربتُ منه وهززتُه بخفّةٍ محاولًا إيقاظه وَلَمْ يُحرّكْ ساكنًا!

- ابني مجرّد فتىً صغيرٍ، ألا يمكنك تركه خارج الأمر؟ لن يعلمَ شيئًا، سيصاب بالذعر إن استيقظ بهذا العدد من الأشخاص حوله.

وبّختني السيِّدة محاولةً إبعادي.

- ما الذي كان يفعله قبل أن ينامَ؟ سألت.

- لا شيء ذو مجهودٍ، قضينا الوقت بعض ألعاب الفيديو، وبعد

مدّةٍ بدأ يشعر بالتعب خصوصًا وهو قد تناول الكثير من الحلوى؛ لِذا تناول عشاءه وأخذ حقنته وذهب للنوم باكرًا، ربما قرب العاشرة أو الحادية عشرة.

- كما قلت لا شأن له ولن يعلمَ شيئًا، هو نائمٌ بعمقٍ، كرّرتْ والدته.

- ربما..

همستْ بقليلٍ من خيوط الشكّ حول أطراف أصابعي، واقتربت منه لمرّةٍ أخيرةٍ متبعًا حدسي.

- ليس نائمًا.. قلت.

قال والده:

- لا.. لا يمكنه التظاهر طوال هذا الوقت كنّا لنعلم ذلك، كما أنّني أتيت لتفقُّده فور وصولي، وكان بخيرٍ لكنّه نائمٌ فقط.

سحبتُ القلم من جيب سترتي العلوي ووقفتُ أمام السرير.

- هذا لأنّه لا يتظاهر!

أجبتُ مجدّدًا، ورفعت طرف الفراش لوخز إصبع قدمه بالقلم منتظرًا استجابةً ما.. ولا شيء.

علقتْ والدته حاجبيها بصدمةٍ، وتفقّدتْ تنفُّسه بسرعةٍ، بينما نزعتُ الغطاء عن جسده، أمسكتُ بمنتصف قميصه لجرّه نحوه للأعلى، ثمّ ألقيتُ به على الفراش مجدّدًا ليسقط جثّةً هامدةً بلا أيّ حركةٍ.

بعد أعوامٍ من العمل في هذا المجال، أصبحتُ أعلم كيف يبدو النائم، وكيف يبدو المتظاهر وكيف يبدو الميتُ، ولكن هذا الفتى هنا..

- مخدّرًا.. قلت بهدوءٍ.

- لَم يكن نائمًا طوال الوقت، أحدهم قام بتخديره منذ مدّةٍ؛ لِذا ذهب للنوم حين شعر بالتعب باكرًا، وعلى الرغم من أصوات الفوضى حوله ما زال غاطًا بالنوم كعجوزٍ أصمّ، وأعلم جيّدًا أنّ أبناء السّياسيّين عادةً مدرّبون على التنبّه وسرعة الاستجابة في حالاتٍ كهذه؛ تحسّبًا للاختطاف، والحالات الطارئة.

وفورًا وافقني والده.

- بوضعٍ طبيعيٍّ كان سيتخذ الإجراءات التي تدرّبَ عليها، بمجرّد أن دخلت نيل إلى غرفته عالمةً بوجود شخصٍ بالمنزل، كان سيستيقظ بفزعٍ ويختبئ بأحد الخزائن السّريّة.

- وعلى الرغم من علمكما بهذا، ألم يعتقد أيٌّ منكما أنّه من الغريب أنّ ابنكما لَم يستيقظ حتّى الآن؟

سألتْ والديه وَلَم يصلني ردٌّ من أيٍّ منهما، وهذا يغير كلّ شيءٍ.

قلتُ قبل خروجي:

- جميعكم مشتبهٌ بكم الآن! وستنتقلون لمركز الشُّرطة لإكمال التحقيق بمجرّد انتهائنا من جمع الأدلة، ولنأمل أن نتمكّنَ من معرفة المجرم قبل ذلك، دقائق وأصبحوا جميعًا محاطين بالمحامين، أيًّا كان الذي خدر الفتى، أراد الحرص على ألّا يراه يرتكب الجريمة، وهذا يجعلهم جميعًا مشتبهًا بهم في مقتل الفتاة.

بدأتُ برسم تفاصيل المخطّط الإجرامي؛ محاولًا جمع معلومات

الحادثة بمخيّلتي في أثناء اجتماعنا بمنزل السيّد العزّاف، وقبل نقلهم لمركز الشُرطة.

كانت هناك سرقةٌ! لِمَ قد يقوم أحد الزّوجين بسرقة الآخر؟ وتخدير ابنهما وقتل الجليسة!

وبالمقابل تبدو طريقةً ذكيّةً للإيقاع بالفتاة (نيل) وجعلها متهمًا محاليًا.

ونيل، هي أيضًا مثيرةٌ للشُبهات، أي شخصٍ طبيعيٍّ حين يرى أحدهم تعرّض للقتل، أوّل ما يفكرُ به هو الهرب ثمّ يفكرُ بأشخاصٍ آخرين، لن يبقى ليتصل بالشُرطة ما لَم يكن يعلم يقينا أن القاتل لن يعودَ لأنّه هو القاتل.

هل تشاجرت الفتاتان نيل وتَجلى على أمرٍ ما! وربما السّرقة؛ لِذا قامتْ بقتلِها لتحصل على كلّ شيءٍ؟

ولو كان الأمر هكذا لاكتشفتْها بسهولةٍ، لن تكونَ قادرةً على إخفاء توتُرها بشأن القتل إن كان دافعها السّرقة، ثمّ إنّ القلادة التي سُرقت ليست لها أيّ قيمةٍ، والسيّدة أبلغتْ عن فقدانها لكونها أوّل هديةٍ من زوجها لها.

بالجانب الآخر.. السيّد العزّاف مذنبٌ بإخفاء أمرٍ ما، كان مثيرًا للرّيبة مع كلّ سؤالٍ، ونظراته الحارقة تجاه (نيل!)، هناك أمرٌ لا يخبرنا به، ثمّ أيّ زوجٍ أحمق يفقد زوجته لنصف ساعةٍ وربما أكثر من دون أن يعثرَ عليها؟ ما لَم يكن قد غادر بالفعل لإنجاز جريمته؟!

وزوجته! بكاؤها كان تمثيلًا لا يستحق أيّ أوسكارٍ، وحاولتْ إظهار

التعاطف على الضحيّة، ولكن لا.. لَم أستطع الشُعور بصدقها، بل وكأنّها أكثر ارتياحًا لموت الفتاة.

المشتبه بهم الثلاثة يخفون أمرًا ما، وتفاصيل ما حدث أكثر تعقيدًا ممّا أرى.

همس بجانبي أحد رجال الشُرطة:

- أليس السيّد العرّاف مثيرًا للرّيبة؟ لَم تره عند وصوله لموقع الجريمة كان بغاية التأثُر والصُدمة لمقتل الفتاة، أجريت بعض البحث متبعًا شكوكي واتضح أنّ شكّي بمحلّه، كان السيّد يبكي لمقتل الفتاة التي أحبّها، فكما ترى هو على علاقةٍ مع جليسة ابنهما.

متأخرًا جدًا ضرب الأمر إدراكي بمساعدة أحدهم، المرّة الثّانية على التوالي التي أخفق فيها برؤية أمرٍ واضحٍ كهذا.

- على أيّ حالٍ، نتائج التشريح للضّحية لن تصلَنا بالسُرعة التي نتمنّاها، ولكن فحص الدّماء للفتى، وكاميرات المراقبة حول الكرنفال، وعامل توصيل البيتزا هم كلُ ما نملك الآن.

أجاب الشُرطيّ:

- وهذا هو كلُ ما نحتاج إليه. ولعلمك، أسرة العرّاف لا يعجبهم توجيه الاتهامات لهم، خصوصًا وهم يدّعون أنّهم الضّحايا هنا، ونحن لَم نعثر على سلاح الجريمة حتّى، إن كان علينا التوصُل للحلّ فيجب أن نفعلَ سريعًا، إطالة الأمر يعني المزيد من الإشاعات حول سياسيٍ قويٍ، وسوف يقاضينا بلا شكٍ إن اتضح أنّنا جررنا اسمه لوقتٍ طويلٍ بلا سببٍ.

مُحِقٌ!

لِذا كان علينا التفكير بنظرة المتّهمين وأقوالهم.

- نيل قالت بأنّها سمعت صوت الباب قبل الحادثة وبدون رنين الجرس! ممّا يعني أنّ الضّحيّة فتحت الباب لشخصٍ تعلم أنّه قادم من أجلها، أمّا عامل التوصيل للبيتزا إن كانت تعرفه وهذا يجعله متهمًا، وإن لَم تعرفه كان يجب عليه أن يرنّ الجرس.

أو أنّه الشخص الذي بكلّ وضوحٍ يملك رابطةً ما بها، وهذا سيكون السيّد عارف، كان يبكي لمقتلها وكأنّها ابنته.

وافقني رجال الشُرطة.

- أمّا زوجته، شيءٌ ما كان غريبًا بطريقة إخبارها لنا، بأنّها ذهبت للبوابة لتبحث عن زوجها! لِمَ قد تذهب إلى هناك؟ وبكلّ وضوحٍ فقدت زوجها بمكانٍ آخر، ومن الأفضل لها أن تبحثَ عنه حيث فقدته! إمّا أنّها غبيّةٌ أو أنّها كانت بالخارج وعادت لتصدم بوجوده هناك.

أضاف الشُرطيّ:

- هل أنا الوحيد هنا الذي يرى بأنّ الفتى المخدّر مشكلةٌ؟ لِمَ قد يفعل أحدهم هذا؟ ربّما السيّد عارف أو زوجته أرادا أن يكون الفتى نائمًا؛ حتّى يتمكّنا من إكمال جريمتهما من دون تشويه صورتهما أمامه؟

أو ربما الضّحيّة هي مَن خدّرته؛ حتّى تتمكّن من التجوُّل بمنزلهم مرتديةً ثياب والدته؟

أو صديقتها؛ لأنّها تريد قتلها ولا تريد شاهدًا؟

محق! تبقى هذه مجرّد نظريّاتٍ حتّى يتمّ إثباتها، وهذا ما عملتُ عليه.

أرسلت رجال الشُرطة لتفقُّد عامل التوصيل، بينما عدتُ لأسرة العرّاف لأكمل تحقيقي معهم.

حاولتُ مفاجأة السيّدة وحدها وبعيدًا عن زوجها؛ لأحصل على قراءةٍ صريحةٍ لردّ فعلها بطريقةٍ ما، وسألتها من دون سابق إنذارٍ:

- منذ متى وأنتِ تعلمين بشأن خيانة زوجك لك مع الضّحيّة؟

راقبتُ جيّدًا ثبات ملامحها، ونظرتها الحادّة لي بالعقدة الصّغيرة بين حاجبيها، ثمّ تحديقها به من بعيدٍ غير راغبةٍ بالاعتراف والإقرار بكونها تعلم بالخزي الذي يحدث حولها. أمّا أنا فحصلتُ على إجابتين لسؤالٍ واحدٍ، زوجها يخونها بالفعل، وهي تعلم ذلك لِذا كلاهما يملك دافعًا قويًا للقتل.

- هذا ما توقّعته.. قلتُ من دون أن تجيبَني.

- وكيف تشعرين حيال الأمر؟ ألا يغضبك كونه بعلاقةٍ بفتاةٍ ربما بنصف عمرك؟ سألتها.

أخرجت السيّدة سيجارةً أخرى غير التي أنهتها للتوّ، ولفّت أصابعها الشّاحبة حولها بمنظرٍ لا يتناسب مع كونها سيّدةً محترمةً، وضعت قدمًا فوق الأخرى بعد أن أخذت وقتها بنفث الدّخان.

- يغضبني؟ هذا فقط يثبت لي أنّ الرّجال لا يتغيّرون أبدًا، كان

لعوبًا قبل زواجنا ثمّ أقسم لي بأنّه سيكون مخلصًا، ويتغيّر من أجل أسرتنا، وهذا ما حدث ولوقتٍ طويلٍ، كنّا بخيرٍ حتّى مولد ابننا، أصبح زوجي بعيدًا جدًّا، ولستُ بحاجةٍ إلى خبيرٍ لأعلم ما الذي يحدث.

- ولستِ غاضبةً من الفتاة؟

- لا.. كنت أشعر بأنّها ستجد ما تستحقُّه يومًا ما، حين يملُّ منها وتنتهي علاقتهما، لَم أعلم أنّها ستنتهي بهذا المصير.

- وهل يعلم أنّك تعلمين؟

- زوجي خائنٌ، وكاذبٌ ولئيمٌ ذو وجهين، ولكنّه ليس شخصًا دنيئًا لهذا الحدّ، لو علم بمعرفتي؛ لأقسم لي أنّه لن يُكرِّرَ الأمر، ثمّ إنّه لن يقطع علاقته بها، وكلّ ما سيفعلهُ هو أنّه سيحاول إخفاءها أكثر؛ ولِهذا لَم أواجههُ.

- جيّدٌ إذًا.. لا تخبريه بشأن محادثتنا هذه، لا بدّ من أنّك تحبّينه أكثر ممّا يستحقُّ، لِمَ لَم تنفصلي عنه؟

- اعذرني أيّها المحقّق، لا يبدو أنّك تملك فكرةً حتّى عن الحبّ، لا تبدو كشخصٍ أحبّ امرأةً ليتفهّم كيف يكون الأمر سيّئًا بموقفٍ كهذا! هل سبق لك طلب الطّلاق من زوجةٍ لئيمةٍ؟ هل تستطيع توقُّع ما قد تفعله لتنتقم منك؟ انفصالي عنه يضرُّ بسمعته خصوصًا في هذه الفترة، وحينها سيحاول بكلّ جهده حتّى لا نحصل أنا وابني على أيّ قرشٍ من أمواله، سيضرُّني ويشوّه سمعتي وليس للأمر علاقةٌ به وبمشاعري أبدًا، ابني هو ما يجبرني على البقاء وتحمُّله، وهو أيضًا

السبب بعدم انفصالنا، لا أعتقد أنّه مستعدٌ للتخلّي عن والده.

هذا غريبٌ! ألا يعلم ابنهما كيف هو والده؟

- وهل كان زوجك موجودًا من أجل الفتى دائمًا؟ قد يبدو لك أنّه متعلّقٌ بوالده، ولكن لن يكترثَ إن لَم يكن والده يستحقُّ العناء!

- أجل، دائمًا كما قلت.. هو ليس شخصًا وضيعًا وأحبّ ابنه بوقتٍ ما، ولكن (ضياء) ما زال متعلّقًا بهذا الجانب من والده، يأمل بأنّه سيعود لنا كما كان سابقًا. قبل خمسة أعوامٍ بإحدى إجازات الصّيف، اعتذر عن حضوره لمجلس البرلمان ليتواجد بمباراة البيسبول مع صغيرنا، أعتقد بأنّها الذكرى الأكثر تفضيلًا لهما، منذ ذلك اليوم وهي رياضتهما المفضّلة معًا.. و(ضياء) ما زال يرى ذلك الجانب منه ويرغب بعودته.

اقتحم السيّد عارف صالة الجلوس مقاطعًا حديثنا، واستدارتْ لهُ.

- ما الذي تتحدّثون عنه؟ اتفقنا على أن تتحدّثَ لأسرتي بوجودي أو بوجود المحامي!

- لِمَ لا؟ هل هناك أمرٌ لا تريد منّي معرفته عنك؟ أخبرني هل قتلت الفتاة؟ سألتُ محاولًا استفزازه.

- هل تحاول إهانتي وبمنزلي؟ هتف بانفعالٍ مبالغٍ به.

- لِمَ قد تشعر بالإهانة ما لَم تفعل شيئًا، كلُّ ما أردته هو سؤال زوجتك.. إن كان الوشاح الذي ارتدته الضحيّة ذا قيمةٍ، وأخبرتني بالفعل أنّه فراء ذئبٍ طبيعيٍّ، حصلتَ على ما أريده وأكثر.

والآن كلُّ شيءٍ واضحٌ، تَجلى كانت مجرّد حمقاءٍ، قامتْ بفتح الباب لقاتلها؛ ولذلك خسرت حياتها، قلت مجدّدًا لاستفزازه أكثر.

- هي ليستْ مجرّد حمقاء، وأظهر بعض الاحترام فقذ ماتتْ هنا! قال بانفعال.

بلا مبالاةٍ باديةٍ على تقاسيم وجهي قلت لأدفعه للهاوية:

- أجل لقذ ماتتْ! أي إنّها لا تهتم لاحترامي لها أو لك، أشرتُ له بإصبعي واستدرتُ متوجّهًا للخارج، ومن دون أن أجيبَ على أيّ أمرٍ آخر، لحقتْ بي تهديدات السيّد العراف:

- سأتحدّث لرؤسائك أيّها المُحقّق، ستتعلّم أن تُظهرَ الاحترام حين تصبح غدًا بلا عملٍ.

عاد رجال الشُرطة من المهام التي أرسلتهم لها لتفقُّد مطعم البيتزا ومَن قام بتوصيلها، واتضح بأنّه كان أحد الشباب الصّغار بعمر الضّحيّة، وهم على معرفةٍ ببعضهم بعضًا، حين سألوه عن إيصال الطلب إلى منزل السيّد عارف، أجابهم أنّه يقوم بإيصالها لمنزلهم كلّ عطلة أسبوعٍ، وتكون تَجلى هي الموجودة في منزلهم لتجالس الفتى، وهي مَن تستلم منه الطلب عادةً، ويقوم السيّد بالدفع دائمًا طالما أنّها طلبت البيتزا من هاتف منزله، باستثناء هذه المرّة، وهذا ما فاجأني!

الفتى التقى بالسيّد عارف في أثناء دخولهما معًا، وأخذ منه البيتزا قائلًا بأنه سَيدخلها معه، وطلب منه المغادرة، وبالفعل سلمها له بلا أدنى شكٍّ ومضى في طريقه، واتضح أيضًا أنّ معرفته الشّخصيّة

بالضَّحيّة تعود للمرحلة الدراسيّة السّابقة فقط، وواجها معًا صعوبةً بالحصول على وظيفةٍ في مجال تخصُّصهما؛ ما دفعهما للعمل المؤقت هذا، ولكنّه أوضح أنّها استمرّتْ بالعمل فقط لدى السيّد عارف، حتّى بعد حصولها على وظيفةٍ بمرتّبٍ محترمٍ.

وأكّد لهم أخيرًا أنّ السيّد عارف، كان متجهًا نحو منزله وبدا وكأنّه قلقٌ من أمرٍ ما، وَلَمْ ينتبهْ له حتّى ألقى التحيّة عليه، ثمّ أخبره أنّه نسي مفتاح السّيارة بالدّاخل، وأخذ منه البيتزا وطلب منه المغادرة، واتضحت الأمور أكثر لي حين عاد رجالي بنتائج تحليل المخدّر، كنتُ قد شككتُ بالأمر، ولكنّني تأكّدتُ الآن، ومن الجيّد أنّني طلبت الإسعاف لمنزل الأسرة لإنقاذ حياة الفتى، وعدتُ لأنهي ما بدأتُه مع السيّد شبه المحترم.

- لماذا؟

سألتْه، وهذه المرّة كان محاميه مَن يحقُّه على الحديث حين بدأت الأدلّة بالظهور ضدّه.

- أقسم لكم لَمْ أقتلها، أنا أحبُّها، أجل عدتُ للمنزل، ولكن أقسم أنّني لَمْ أفعلْ شيئًا واحدًا لأذيّتها.

- حبُّك لها ليس مبرّرًا، ثمّ إنّك أخفيتَ حقيقة عودتك للمنزل! هل تمانع إخبارنا بالحقيقة الكاملة الآن وإلا سيكون مصيرك سيّئًا؟

فرك كفّيه بتوتُّر وأخرج من جيب سترته الداخليّ ذاكرة تسجيلٍ صغيرةٍ بتردُّدٍ.

- عدتُ من أجل هذه، الذّاكرة في جهاز التصوير بغرفة المعيشة،

زوجتي قامتْ بوضعها هناك بداخل كاميرا تسجيلٍ على هيئة شمعةٍ، أرادتْ دائمًا أن تطمئنّ لِمَا يحدث مع ابننا في غيابنا، وأنا تحدّثتُ ل تَجلى أمام الكاميرا قبل مغادرتنا، وحين تذكّرتْ ذلك خفتُ أن تصلَ لها زوجتي أوّلًا حين نعود، فهذا أوّل شيءٍ تفعله دائمًا.

بزّر والخزي يملأ أحرفه، وَلَم أجد طريقةً لوصف حماقة ما فعله.

- أحمق! قلت باستياءٍ من دون قصدٍ، لو أنّك تركت هذه الذّاكرة بمكانها لاكتشفنا أمر القاتل.

- أعلم.. أعلم، وهذا ما أندم عليه الآن، لكن صدّقني حين عدتُ كانت بخيرٍ، أقسم أنّني بالكاد تحدّثتُ لها، وحصلتُ على الذّاكرة وغادرتُ وهي بخيرٍ، أخبرتكم! نيل هي مَن تملك دافعًا لأذيّتها، طالما كانت تغار منها وتحاول إفساد علاقتي بها وتخبرها أنّني سأتخلّى عنها، كما أنّني وعدتُ تَجلى بتكفُّل تكاليف دراستها الجامعة للفنّ، ومنذ ذلك الوقت وهي تتشاجر معها باستمرارٍ.. سقط منهارًا يبكي، وتركته ليأكله غباؤه وغادرت متجهًا للفتى فور علمي باستيقاظه، وأُخّرتُ الدخول عليه لعدة دقائق، أكدتُ فيها لرجالي ألّا يتحدّثوا معه..

- ضياء، تبدو بصحّةٍ جيّدةٍ الآن كيف تشعر؟

- أشعر وكأنّني ابتلعتُ خليّة نحلٍ، أين أمّي؟ قال قاصدًا تأثير الأدوية.

ضحكتُ ورَبتُّ على كتفه وأجبته:

- بالأسفل، لِذا لا تقلق، بمجرّد أن ينتهيَ الأمر سنكون بطريقنا لهم،

تظاهرتُ بتفقُّد سجلّه الطّبيّ على الجهاز اللّوحيّ بيدي بصمتٍ، وراقبته ينظر لنا وكأنّه يرفض تواجدنا. وبقي يبدّل نظره بعينيه الشاحبتين وهيئته المتعبة الضّعيفة الخائفة، على الرغم من محاولته ليبدو متماسكًا.

- قلتُ له: حسنًا.. أرى أنّك بحالةٍ جيّدةٍ للتحدّث، إن لَم تمانع نودُّ أن نطرحَ عليك بعض الأسئلة.

- حسنًا، ولكن لِمَ؟

- ألم تعلم أن تَجلى قتلت البارحة؟

- بلى.. أخبرني أبي منذ قليلٍ، ولكن.. أليست نيل مَن قتلتها؟

- هذا ما نحاول معرفته، أخبرني ماذا كنت تفعل قبل قدوم الفتاتين؟

- كنت أنهي واجباتي، ثمّ ذهبت للّعب، وحين غادر والداي قضينا بعض الوقت معًا، أنا وهي ونيل.

- هل كانت علاقتكم جيّدةً؟ لِمَ كنت تتشاجر معها كثيرًا إذًا؟

- هل هذا سؤالٌ؟ بحقّك لا تعلم شيئًا عن المربيّات، أراهنُ بأنّها كانت تبقى على الهاتف لساعاتٍ ولا تلقي لك أيّ بالٍ صحيحٌ؟ قال أحد رجال الشُرطة باتفاقٍ مسبقٍ معي.

نظر له (ضياء) وأومأ موافقًا له.

- أجل.. ليس لهذا الحدّ، ولكن أجل، كانت مهملةً وكنت أكره ذلك، لِذا كنت أعتقد بأنّها تكرهني بالمقابل، خصوصًا حين تَشي بي

لوالدي، ولكن الأمر لا يستحقُّ، لَم أكن غاضبًا منها، بالحقيقة أصبحنا أقرب لبعضِنا مؤخّرًا.. أجاب بهدوءٍ.

هذا جيّدٌ.. هو لَم يسأل كيف علمنا عن شجاراهما ومن أخبرنا، لعلّه افترض بأنّ أحد والديه فعل ذلك.

- ما الذي تغيّر؟

- لا شيء، أمّي أخبرتني أن أتصرّفَ معها بلطفٍ؛ لأنّها مجرد فتاةٍ تحاول الحصول على المال والذّهاب لِلجامعة.

- الجامعة ههه.. كيف لفتاةٍ تعمل جليسةً أن تلتحقَ بالجامعة؟ هذا مستحيلٌ.. صحيحٌ؟

قهقه الشُرطيّ مجدّدًا ونظر له الفتى من دون الاستجابة لحماسه ومحاولته لسحبه للحديث أكثر.

لِنَرَى كيف ينظر إلى أسرته، ومَن باعتقاده المذنب إن لم تكن (نيل)، فالطّريقة التي تحدّثت بها والدته عن كونه يثير المتاعب دائمًا معها، وطريقته بإخبارنا أنّهم بخيرٍ، أحدهما يكذب بالتأكيد.

- أخبرني ضياء، لا يعقل بأنّك لَم تشعز بشيءٍ غريبٍ أو تسمع شيئًا عن شجارهم طوال اليوم؟ الفتية بعمرك شديدو الملاحظة وأذكياء، ربما سمعت تَجلى أثناء شجارها مع نيل؟ أو ربما سمعت شجار والديك مسبقًا!

قطع حديثي..

- وما علاقة شجار والديّ بما حدث لها؟!

- لا أعلم.. أخبرني أنت؟

- أستطيع إخبارك أنّ والديّ بخيرٍ، ربما تشاجرا بشأن ذِكرى زواجهما وأين سيقضون هذا اليوم. ولكن ليس للأمر علاقةٌ بما حدث صحيحٌ؟

أومأت له.

- ولكن إن لَم تقل الحقيقة لن نعلمَ مَن الذي حاول قتلك!

- هناك مَن يحاول قتلي؟

أجاب بصدمةٍ.

هنا تدخّل الشُرطيّ مجدّدًا:

- أراهن أنّه السيّد عارف، أخبرنا بشأن علاقته مع المربّية، ربما لهذا حاول التخلُّص من أسرته! أو ربّما السيدة مَن علمث بشأن العلاقة وعادث لتقتلها.

شاهدتُ ملامحه تتغيّر للغضب حين ذكرنا والدته.

- هي! مهلًا.. مهلًا.. لِمَ قد تقتل أمّي تَجلى؟ هي حتّى لا تعلم بشأن خيانة أبي لها!

وهذا أوّل انقلابٍ جيّد للأحداث، اقتربتُ من الفتى ليعتدل بجلسته على السّرير.

- ولكنك تعلم؟ قلتَ وَلَم أُزحزح عينيّ عنه.

- بالطبع أعلم.. أقضي معها أغلب الأيّام، أرى كيف تنظر له وتستمرُّ

بسؤالي عنه، وكأنّها مراهقةٌ غبيّةٌ!

- ولكن كما ترى ضياء، والدتك كانت تعلمُ بشأن خيانة والدك لها، ولكنّها لَم تفعلْ شيئًا لمواجهته، لِذا من الطّبيعيّ أن نعتقدَ بأنّها مَن حاولتْ قتلها،

- لا.. لا يمكن لهذا أن يكونَ صحيحًا، هل تقول لي إنّ أمّي هي مَن قتلتها! هذا مستحيلٌ.. أمّي لن تؤذيَ تلك الفاسقة، صرخ فجأةً.

ثمّ يلي ذلك انفعاله وانهياره، وانتهى الأمر بوالده يصرخ في وجهي مجدّدًا لعدم إخباري له أنّ ابنه استيقظ، وعلى الرغم من اعتقاد الجميع فإنّني لَم أستفذ منه، ولكن بالحقيقة حصلتُ على الكثير.

الفتى كان في حالة حزنٍ وغضبٍ على والدته، أرى بأنّه حاول حمايتها من معرفة الحقيقة عن والده.

السيّد عارف بدا جريحًا، ونظرة الخزي على وجهه لَم تكن سوى نظرة ألمٍ وندمٍ؛ لكونه يشعر بالمسئوليّة تجاه ما حدث للضّحيّة، ولكنّه في الوقت ذاته كاذبٌ.

السيّدة غاضبةٌ لدرجةٍ قد تدفعها لارتكاب جريمةٍ! أجل، ولكنّها جبانةٌ في الوقت ذاته، لَم تستطغ حتّى مواجهتها بشأن ارتدائها لثيابها، وعلى الرّغم من ادّعائها عدم الاهتمام بهذه الفتاة المقتولة، فإنّها على خلاف ذلك سعيدةٌ تمامًا. والفتاة وصراعها بين الغضب والحزن، ولكن لِمَ؟ ما الذي يدفعها للغضب من صديقتها التي قتلت للتوّ!

لسببٍ ما بدا كلُّ شيءٍ يَتمحور حول علاقة الفتاة بالأسرة، راجعتُ أقوالهم لمرّةٍ أخيرةٍ بينما هُم بانتظاري.

سيّدة المنزل

- هل كنتِ على علمٍ بعلاقة زوجك؟!

تنهّدتْ وكأنّه كان حملًا ثقيلًا على كتفها: أجل.. كنتُ أعلمُ بشأن خيانته، أخبرتكم! ولكن الأمر خارجٌ عن مقدرتي لِذا لَمْ أقلْ شيئًا، ومنذ وقتٍ طويلٍ كنتُ أستعدُّ نفسيًا لِليوم الذي سيخبرني به أنّ عليّ توقيع أوراق طلاقِنا، أو عندما يقطع علاقته بها، وبالحقيقة لَمْ أكن أهتمُّ سوى لوجود ابني معي، خصوصًا أنّنا تشاجرنا قبل مُدّةٍ أمامه وأخبرني بأنّه سيحرمني منه، لِذا إجابة سؤالك لا، لن أؤذيَ الفتاة التي أحبّها زوجي حتّى لا يحرمني من ابني، من أجله كنت لأفعل أيّ شيءٍ لكن ليس القتل، كلّ ما أرادته الفتاة هو زوجي لِذا لَمْ أقفْ بطريقها، ثمّ ما فائدة ذلك له حين أذهب للسّجن؟

وبسؤالنا ذات الأمر ل نيل أجابتْ:

بالطبع كنتُ أعلم وحاولتُ ردعها كثيرًا وَلَمْ تستمعْ لي وَلَمْ تقتنعْ أبدًا، أجلْ تشاجرنا أمام المنزل وصفعتُها حين تمادتْ وقالتْ: إنّها لن تتوقّفَ، وهي أخبرت السيّد عارف بشجارنا؛ لِذا هو يظنُّ أنّني مَن قتلها!

الابن ضياء

لا أعلم شيئًا.. أخبرتكم.. لَمْ أسمعْ أو أرى أيّ شيءٍ.

السيّد عارف

فعلتُ ما كان عليّ فعله، أي شيءٍ من أجل عائلتي؛ ولِذا عدتُ لأخذ الشّريط، ولكن لَم أقتلها.

جمعتهم في غرفة المعيشة بوجود رجال الشُرطة والطّبيب، وأسرة نيل التي منذ علمت بما حدث، لَم تفارق جانب المنزل مصرّين على براءتها، تأمّلتُ حالة كلٌ منهم.

- بيننا قاتلٌ!

قلتُ بهدوءٍ، وهو يعرف نفسه جيّدًا، استغلّ فرصةً صغيرةً جدًا لينفّذ جريمته، ووقف الحظُ بجانبه، ولكن لا يوجد جريمةٌ كاملةٌ حتّى بمساعدة الحظّ، أريد من هذا المجرم أن يعلمَ أنّ ما فعله أمرٌ سيعاقَبُ عليه عقابًا شديدًا وفقًا لِلقانون؛ لأنّ هذه الجريمة خُطّط لها بخبثٍ ودقّةٍ، وليست وليدة اللّحظة أو دفاعًا عن النفس، راقبتُ وجوههم وردود فعلهم وأنا أتكلّم، وحرصتُ على أن أقلقَهم جميعًا بلا استثناءٍ.

السيّد عارف كان لطيفًا جدًا، وسمح للضّحيّة بالاستمرار بالعمل كمربيّةٍ لابنه لحاجتها إلى المال، على الرغم من أنّ ابنهم الآن وصل لعمرٍ لا يحتاج فيه إلى جليسةٍ، فإن ما لا تعلمونه جميعًا أنّ كلّ ما أراده السيّد هو وجود عشيقته، كان مستعدًا لترك أسرته من أجلها، ابنه وزوجته التي دعمته منذ أن كان مجرّد نائبٍ حتى أصبح عضوًا مهمًا للدّولة.

راقبتُ ملامحهم لأرى مَن تفاجأ من إفشائي بالسرّ للعلن ومَن الذي لَم يفعل!

- حقيقةً مؤسفةً.. نيل أيضًا حيث إنّها حاولت قدر المستطاع أن تبعدَ تَجلى عن هذا الطّريق، فالرّجل الذي يبيع أسرته الأُولى، سيبيع الثّانية.

- هذا ليس صحيحًا، أحبُ زوجتي وأحبُ ابني، ولكن أحببتُ تَجلى أيضًا، ثمّ ما علاقة كلّ هذا؟ حبّي لها دليلٌ قاطعٌ أنّني لَم أقتلْها، قال وهو على وشك الانهيار وقزّزتُ الإفراج عنه، فتكفيه المذلّة التي وضع نفسه بها.

- أجل أعلمُ، وأعلمُ أيضًا على الرغم من تسلُّلِك من المهرجان، وعودتك إلى المنزل أنّك لَم تقتلْها، القاتل كان سيظهر بتصوير الفيديو للكاميرا في غرفة المعيشة، لولا أنّك أخذت الذّاكرة لتخبئ فِعلتك.

توجّهتُ لنيل، ومددتُ يدي لها وقلتُ:

- هاتي يدك.. أعلم أنّ آثامك مجتمعةٌ بعينيك، ستقودنا لسلاح الجريمة.

- مستحيلٌ! أنا لا أعلم أين هو!

اعتراضات أسرتها ازدادتْ، وتجاهلتهم أخذًا بيدها المرتجفة وتراجعتْ للخلف، أتفقّد عينيها والبقيّة لأتوجّه لليمين واليسار، مع كلّ ردّ فعلٍ منهم كنتُ أغيّر اتجاهي لِلمكان الذي اعتقدتُ أنّه صحيحٌ، حتّى توقفتُ قرب جدارٍ عليه لوحةٌ.

نيل لَم تفهم ما يحدث؛ لِذا انهارتْ وبدأت بالبكاء والترجّي وتركتُها في مكانها مبتعدًا عنها؛ لأتوجّه للمكان الصّحيح.

- نيل لَم تكن سوى أداةٍ لي، وسيلةٍ لتشتيت القاتلِ الحقيقيّ حتّى تقودني عيناه وردود فعله للسّلاح، نيل لَم تقتلْ صديقتها. حين وصلت لذات الجهة الأخرى من الجدار، دفعت اللّوحة لتظهر خزانةٌ سِريّةٌ، دفعت الباب ويالللمفاجأة!

- هذا هو سلاحُكم! ومتأكّدٌ أنّه وبفحصٍ بسيطٍ على مقدّمة السّلاح، سنجد الحمضَ النوويّ من شعر الضّحيّة، القاتل خبأ السّلاح هنا حتّى يورط نيل، فقد أخبرتني أنّها تخبئ أغراضها هنا دائمًا.

وأنا استطعتُ من ملامحه، وأنا ممسكٌ بيدها أن أعلمَ مَن كان متشوّقًا لتوجيهي لمكان السلاح، وكشف ما حدث تمامًا كما أراد!

أخرجت عصى البيسبول من مكانها، ولوّحتْ بها أمامهم واحدًا تلو الآخر.

- هذا الشّخص كان ذكيًا جدًا من البداية، ولكن لسانه فضحه مسبقًا مثل كلّ المجرمين.

استدرتُ للأب وسألتُه:

- هل تواصلت مع ابنك منذ استيقاظه قبل أن أتحدّث له أنا؟

هزّ رأسه بالنفي وحينها وجّهتُ نظري للفتى.

- هذا غريبٌ، فقد أخبرنا أنّك مَن أخبره بمقتل الفتاة! هل نحن بحاجةٍ إلى إحضار الفريقِ الجنائيّ لرفع البصمات عن اللّوحة؟ فكما ترى حين وضعت المضرب وخلعت القفّاز من يديك، نسيتَ أنّنا سنكون قادرين على رفع بصماتك، أم أنّك تريد توفير العناء علينا وتخبرنا الآن يا ضياء!

- مستحيل! كان ابني مخدّرًا طوال الوقت، وأنتَ مَن قال ذلك! كيف له أن يقتلَ فتاةً وهو مخدّرٌ؟

دافع والداه عنه وكنتُ صامتًا أنظر إليه.

- أخبرهم كيف يا ضياء.

- لا أعلم ما الذي تتحدّث عنه! وبالطّبع ستكون بصماتي على المضرب واللّوحة والخزانة، هل نسيت أن هذا منزلنا؟!

- بالطبع أعلم، بالحقيقة أنتَ خطّطتَ لكلّ هذا بذكاءٍ، علمت أنّ الضّحيّة ستجلب صديقتها كالعادة، لِذا بدأت تُفكّر كيف تتخلّص منها، كيف تتخلّص من الفتاة التي سرقت والدك منكم، وأحدثت فجوةً في أسرتكم.

وحاولتَ قبل ذلك التخلُّص منها بمعاملتها بسوءٍ، لِذا حين فقدتَ الأمل، وازدادت شجارات والديك، قرّرتَ التخلُّص منها وتلفيق صديقتها، وتنجو لكونك نائمًا وقت الجريمة، المخدّر الذي كان بجسدك لَم يكن مُخدّرًا، كان جرعةً زائدةً من الأنسولين أدّت لفقدانك الوعي، انتظرتَ بالأعلى وأنت تشاهد تجلي تحاول أخذ مكان والدتك وترتدي ثيابها، وحين نزلت وجدت والدك في المنزل مجدّدًا؛ لِذا كنتَ غاضبًا، ملأك الغضب لكون والدك ترك والدتك في ذكرى زواجهما وعاد من أجلها!

لِذا لَم تتردّد بتسديد تلك الضّربة بعصا البيسبول، وقتلتَ تَجلى، تركت المضرب مخبأً في الذّولاب السّريّ مع أغراض نيل، وأنت عالمٌ بأنّها ستكون متهمةً، وكلّ ما فعلته هو التظاهر بأنّك خدعتنا بالفعل،

بينما بالحقيقة قد قرأتُك كالكتاب! أنت ذكيٌ جدًا، ولكنّك مجرّد فتىً معتلٌ بشخصيّةٍ معاديةٍ للمجتمع.

استمرّتْ تهديدات والديه لي وَلَم أكترثْ، كنتُ مركّزًا نظري نحوه أراقب ملامحه التي لَم تتغيّر.

- أعلم أنّك ذكيٌ جدًا ضياء، من أوّل دقائق قضيتُها معك علمتُ أنّك كاذبٌ محترفٌ ومتلاعبٌ، والآن بصمتك هذه أثبتَّ لي أنّك أذكى ممّا تعتقد أسرتك، أذكى من والدك الذي يواعد فتاةً قد تكون بمنزلة ابنته، ومن والدتك التي تتجاهل الأمر وكأنّه لَم يُفسد حياتها، وهم يعتقدون أنّك مجرّد طفلٍ ولا تعلم شيئًا، ولكن لا.. ليس أنت!

أشرتُ له..

- أعرف أنّك ذكيٌ ومحاولتك لنفي الأمر إهانة لذكائك. حاولتُ استفزاز نرجسيتّه الكامنة في أيّ شخصيّةٍ بهذا الاعتلالِ الإجراميّ، لا أعلم كيف انتهى به الأمر هكذا، ولكنّه معتلٌ نفسيًا! استطعتُ أن أرى ذلك به، منذ أن علمتُ أنّه خاطر بالموت والغيبوبة حين حقن نفسه بجرعةٍ زائدةٍ من الأنسولين، جرعةٍ قام بحسابها بدقّةٍ كي يفقد الوعي من دون أن يتوقّفَ قلبه عن النبض، ولأوّل مرّةٍ تحوّلتْ ملامحه للغضب.

- لَم يكن من المفترض بهذا الرّجل أن يعودَ! أجاب بانفعالٍ وأشار لوالده، كنتُ سأضربِها.. أجل، حتّى تفقد الأمل هي وأبي بوجود مستقبلٍ لهما ولنا معًا، وتتوقّف عن مواعدته، لكنّني غضبتُ، كلُّ ما فكّرتْ به هو.

- أمّي! وحيدةً في ذلك المهرجان السّخيف!

الصّمت كان سيّد الموقف، لَم يُصدّقْ أيّ أحدٍ سواي ما خرج من بين شفتيه، وَلَم تفاجئني تلك الملامح الشّيطانيّة التي ارتسمت على وجهه فجأةً.

- هذه الفاسقة أفسدت أُسرتي ونالت ما تستحقُّه! نظر لأسرته وأكمل بثقةٍ؛

- لا تقلقوا.. ما زلتُ قاصرًا، ولن يحدثَ لي أيُّ شيءٍ.

***

حصلنا على اعترافٍ..

ولكن بالفعل، كان ضياء حرًّا طليقًا كأيّ شابٍّ آخر، وحصل على منحةٍ رياضيّةٍ ودرس في أفضل الجامعات، وحصل على وظيفةٍ مرموقةٍ، هو مجرّد معتلٍ آخر يجوب الشّوارع بيننا.

بشارة الأمين ولو بعد حين

بخطًى بطيئةٍ غير واثقةٍ، سار ملتصقًا بحائط الرواق، وعيناه مُركّزتان على الباب في آخر المَمرّ،

كان يَعُدُّ خطواته بتركيزٍ شديدٍ وخوفٍ وذعرٍ بالوقت ذاته، تسعة، ثمانية، سبعة، ستة..

عيناه زاغتا يمينًا وشمالًا بشكلٍ متكرّرٍ وهو يحاول أن يبقى هادئًا، فالخوف عدوّه وسبب وجوده في هذا الموقف بالتحديد.

دفعه الكبرياء إلى قبول التحدّي الذي لَم يكن أهلًا له، وفضّل الخوض في هذه المغامرة مجهولة النّهاية، على أن يعترفَ بأنّه جبانٌ، يخاف الظّلام ويخاف الأماكن المهجورة، خصوصًا تلك التي شاع عنها الظّواهر الخارقة لِلطّبيعة، وهو الآن في مأزقٍ، عليه الوصول إلى سطح الفندق حيث سيلتقي بأصدقائه الذين افترقوا في البهو، وسلك كلٌّ منهم طريقًا مختلفًا للصّعود إلى السطح والخاسر.. هو الذي يصل أخيرًا.

ولأنّهم يعلمون بحقيقته الجبانة، وتعابير الفزع المضحكة التي ترتسم على وجهه، أوكلوا إليه مهمّة حمل الكاميرا لتوثيق رحلتهم في الفندق المسكون.

تسارعت خطواته حين لمح الباب العملاق والعلامة الباهتة فوقه، مُشيرةً إلى مخرج الطوارئ ودغدغ الحماس قدميه لاقترابه من النهاية بسلامٍ، لَم يكترثْ لكونه سيصل بالمرتبة الأخيرة، ولكن يكفيه أنّه وصل! وصل بكامل قواه العقليّة والجسديّة.

وبتلك اللّحظة تحديدًا تجمّد عن الحركة حين لمحث عيناه حركة أقدامٍ من أسفل الباب، ضربةٌ قويّةٌ دوّى صداها في الفراغ حوله أفزعثه ودفعثه لهاوية الهلع، صرخ وتراجع للخلف من دون تفكيرٍ حين انفتح الباب، وعَبَرث منه صرخةٌ قويّةٌ ترنّد صداها بكامل الفندق، وسمعها الأصدقاء الخمسة كلُّهم.

***

بعد ستّة أشهرٍ..

- كفى ثرثرةً يا رفاق، هل سندخل؟

نطق أحدهم قائلًا بعد أن طالث مماطلتهم، وتبادلوا النظرات والأحاديث بترنُّدٍ لوقتٍ طويلٍ، شجّعهم للإقدام على ما جاءوا لأجله بإصرارٍ، وقف الخمسة في البهو وكأنّ أقدامهم عجزث عن اتخاذ خطوةٍ جريئةٍ كهذه، ليس بعد ما حدث آخر مرّةٍ كانوا بهذا المكان، وليس بعد ما حصل.

ساورتهم مشاعر مختلفةٌ، أحدهم شعر بالقلق والترنُّد، بينما الآخر كان متحمّسًا بترقُّبٍ لِمَا قد يحدث هذه المرّة، كانت الفكرة مجنونةً تنهش عقولهم، أرادو نشر ذلك المقطع على قناتهم في اليوتيوب، وقد يكونون أوّل مجموعة شباب تملك دليلًا حقيقيًا مصوّرًا لهذا العالمِ الغيبيّ المجهولِ.

ما أرادو الوصول إليه كان في مكانٍ ما في ذلك الفندق، وتتراكم عليه طبقات الغبار حتّى تكاد تكون طيّ النسيان، فصديقهم علاء كان قد تُوفّي في تلك اللّيلة قبل ستة أشهرٍ، تاركًا وراءه عرضًا

موثّقًا بالكامل لِما حدث، كلُّ ما يعلمونه هو أنّ علاء سقط في إحدى فتحات المصاعد وهوى حتّى القاع منهيًا بذلك حياته، لَم يعلموا إن كانت تلك خطوةً خاطئةً أو حادثًا مأساويًا بسبب الخوف كما ذكر أصدقاؤه، حين انهالت عليهم الاتهامات والأصابع اللائمة لتهوُّرهم، ودخولهم عنوةً لهذا الفندق الذي كان يملك سمعةً مخيفةً، فقد شاع أنّه مسكونٌ بالجنّ، وأنّهم يتجوّلون في ممرّاته ليلًا ونهارًا، لكن على الرغم من كلّ ذلك، فإن الأصدقاء الستّة: حسان، أسامة، عبد الله، مالك، أحمد وأخيرًا علاء قرّروا أن يوثّقوا ذلك التحدّي داخله، وهاهم الآن يعودون إليه خمسةً ليستردّوا ما فُقِد منهم، ويكتشفوا اللّحظات الأخيرة لصديقهم علاء في هذا المكان، تقدّموا ببطءٍ وتردّد في الممرّات المظلمة للفندق، صوت خطّى أقدامهم ترتّد في الأرجاء حتّى خشي بعضهم أن يعطوا إشارةٍ بوجودهم لسكّان الفندق المهجور.

عبث حسان بالمصباح وأطفأه بشكلٍ متكرّرٍ ليرعبهم بينما يضحك خفيةً، وقال بابتسامةٍ ساخرةٍ وهو ينظر لهم: - كان عليّ أن أحضر كاميرا أخرى لأوثّق سيقانكم المرتجفة!

- هل بتنا نسخر الآن من هذا الموضوع؟ ألا ترى أنّ تنمُّرَك المستمرّ على علاء هو سبب كلّ ما حدث؟

نطق أحمد باستياءٍ لكونه لَم يدعم هذه الفكرة بالمرّة الأولى أو هذه المرّة.

- برئّك، علاء كان مرعوبًا من كلّ شيءٍ! لا عجب أنّه لَم يخرج حيًا من هنا، الخوف كان عدوّه، وهو عدوكم الذي سيقتلكم إن لم تتغلّبوا

عليه، قاطعه عبد الله بتنبيهٍ جاد:

- يا إلهي.. حسان.. يكفي، لسنا هنا لنتشاجر أو نلوم بعضنا، علينا أن نركزّ على إيجاد الكاميرا والخروج من هنا بسلامٍ.

تلفّت أسامة حوله بتوجُسٍ.

- أتفق.. دخلنا هذا المكان وكنت أعلم أنّه فكرةٌ سيّئةٌ، كلُ ما أريده هو الخروج من هنا بأسرع وقتٍ ممكنٍ.

مضث دقائق تبادلوا فيها بعض الهمسات والتوجيهات للطريق أمامهم، بينما يرشدهم عبد الله للطّريق الذي سلكه علاء عندما افترقوا، وبكلّ مرّةٍ كانت الأضواء الخافتة تتلاعب، والظّلال الغريبة ترتسم في الزوايا، أقنعوا أنفسهم أنّها ظاهرةٌ طبيعيّةٌ لا أكثر، لَم يتجرّأ أيٌ منهم على النطق، وبعد عدّة انعطافاتٍ بدا لهم أنّهم يدورون في حلقةٍ مفرغةٍ بسبب توتُرهم وخوفهم، حتّى وقفوا أمام مفترقٍ بأحد الممرّات، أشار عبد الله.

- مِن هنا.. لا بدّ من أنّه عَبَر من هذا الممرّ، لا أعتقد أنّه سلك المَمرّ الآخر فنهايته مخرج طوارئٍ، ردّ عليه مالك: - كان جبانًا، متأكّدٌ بأنّه صعد من باب الطوارئ هذا إلى السّطح مباشرةً.

وتأفّف عبد الله بسبب حيرته، ولكونه سئم من إساءتهم لعلاء طوال الوقت.

- توقف عن الإساءة له، لا يجوز التحدّث بسوءٍ عن الموتى.

- ألستَ مَن تذكر والدك بالسّوء طوال الوقت؟ ألستَ مَن تشاجر مع علاء طوال الوقت على أتفه الأسباب، يا لك من منافقٍ! حتى إنك لَم

تطقه، لِمَ كلُّ هذا الاحترام له الآن؟

استهزأ به مالك، وأوشكت تلك الجملة على أن تنشبَ شجارًا بينهما.

صمت عبد الله واقترب منه أحمد لِيربت على كتفه بهدوءٍ؛ خوفًا من أنَّ ما سيقوله سيخلق شجارًا الآن، في هذا المكان المشئوم بينما قهقه حسان، وأخرج هاتفه بلا اهتمامٍ لِما يقولونه، قال أسامة وهو ما زال يتلفَّت حولهم بخوفٍ:

- لا داعي للشِّجار.

عبد الله صمت قليلًا وأكمل..

- على الأقل أنا لست منافقًا، فوالدي يعلم أنني أكرهه. لنذهب من هنا وليذهب هو من حيث يريد.

كان مالك قد ركل خشبةً في طريقه وتقدّمهم حتّى أوقفه صوت عبد الله..

- أنا منافقٌ؟ ألم تكن مَن توسّل إلى علاء حتّى يقدّمك لنا ويسمح لك بالانضمام إلينا؟ وها أنت تطعنه في ظهره وتدّعي الآن أنّك صاحب الفضيلة!

قهقه حسان باستهزاءٍ..

- صحيح، طعنة الظهر تورد القبر، وأنت أدرى بذلك، وأكمل الطّريق خلف مالك الذي سبقه باتجاه بابٍ، مفترقين عن البقية، بينما بقي أحمد وعبد الله وأسامة معًا.

أحمد بقلقٍ..

- لا أعلم لِمَ تصرّف مالك بهذا الشّكل، حسان ليس شخصًا يمكن الاعتماد عليه في هذا المكان!

قال أسامة بصوتٍ مرتجفٍ:

- أشعر أنّ الأمور لا تسير كما هو مخطّط لها، أريد فقط أن أخرج من هنا بسرعةٍ أرجوكم لنعثر على الكاميرا ونغادر.

أجاب عبد الله بثباتٍ:

- يجب أن نركزّ الآن، لنذهب إلى القبو لقاع المصعد حيث سقط علاء ثمّ نعود حالما نجد الكاميرا. تتابعث خطاهم المتردّدة وهم ينزلون ببطءٍ على الدّرجات الخشنة المؤديّة إلى الأسفل نحو القبو، حيث توقّعوا العثور على الكاميرا أو ما تبقّى منها، وشيئًا فشيئًا طوّقهم شعورٌ خانقٌ بالعزلة، وتسلّل البرد القاسي إلى أعماق أرواحهم.

كشفت أضواء مصابيحهم الضّعيفة عن مشهدٍ كئيبٍ، الأشرطة الصّفراء الباهتة التي نصبتها الشُرطة لا تزال تلوح بشكلٍ شاحبٍ في زوايا المكان، لتحديد المنطقة حيث وُجِدت جثّة علاء، تلك الأشرطة أصبحت الآن شواهد صامتةٍ على حدثٍ مأساويٍّ كأنّها تنطق بالحقيقة التي يحاولون الحوم حولها.

نظروا حولهم باحثين عن أيّ أثرٍ للكاميرا.

أحمد شعر بوخز النّهايات الحتميّة، وعبد الله يجول بصره بتروٍّ بين الرّكام والظّلال السّميكة.

أسامة! وقف متسمّرًا بمكانه، قيّده الإحباطُ والضّيقُ، عقله مشوّشٌ بالأفكار الجنونيّة، الخوف ينهش رأسه وجسده، واتضح كلُّ ذلك في الرّجفة اللاإراديّة لجسده، بينما تمرُّ اللّحظات وثقلها فوق قلوبهم يتفاقم، وتبدّل الأمل ببطءٍ إلى شيءٍ خانقٍ وغير مرئيٍّ.

وبينما هم غارقون في اليأس كلٌّ على حدةٍ، كسر الهدوء الثّقيل فجأةً بصرخةٍ مدوّيةٍ، الصّوت اخترق جدرانهم الدّفاعيّة الهشّة، مثيرًا استجابةً غريزيّة إمّا بالموت من شدّة الهلع، أو الهروب من هذا المكان.

بالجانب الآخر..

في زاويةٍ يعمُّها الظّلام الدّامس، هناك.. تحت إضاءةٍ خافتةٍ تتراقص بين الظّلال، اهتزّ جسده بخوفٍ ورجفةٍ لاإراديّةٍ، جالسًا على الأرض، ظهره ملتصقٌ بالجدار، عيناه مشّعتان تُحدّقان في الفراغ، ويداه تشابكتا بقوّةٍ حول ركبتيه، كأنّما يحاول منع نفسه من التفتُّت إلى أشلاء من خوفه الشّديد.

أنفاسه تتصاعدُ وتيرتُها بشكلٍ مضطّربٍ، وتتخلّلُها همهماتٌ لا معنى محدّدٍ لها، تتحوّلُ تدريجيًا إلى طلاسم بصوتٍ خافتٍ حتّى يتضح في نهايتها أنّها معوذاتٌ، وبعضٌ من الآيات التي يحفظها، ليطمئن قلبه المضطّرب، وكلُّ ذلك تلاشى حين سمع وقع خطواتٍ تتقدّم نحوه، تسارعت ضربات قلبه وكاد يتوقّفَ في اللّحظة التي وقع الصوت على أذنه..

- مالك!!

اقتربوا وأعينهم تراقب المشهد أمامهم بقليلٍ من الذّنب والقلق، إذ أنّ الخوف لَم يكن منظرًا مألوفًا على وجه مالك، وهذا ما أرعبهم أكثر.

جلس أحمد وعبد الله إلى جانبه وحاولوا تهدئته؛ لعلّهم يجدون بعضًا من ذلك في أنفسهم، ولكن مالك كان في عالمٍ آخر، رفع رأسه، وقال بصوتٍ مهزوزٍ كصدى محفورٍ في أعماق الظّلام:

- الفندق.. مسكونٌ! سنموت هنا.

جلسوا حوله بصمتٍ لاستيعاب منظره وكلماته، الآن يدركون مدى هشاشتهم أمام المجهول، الذي يتغلغل بينهم من خلال الجدران التي شهدت ما لا يستطيعون تخيّل وجوده، وأيًّا كان ما أقنع مالك بأنّه سيموت هنا، ودفعه للهاوية بهذه الطّريقة، لا يمكن أن يكون أمرًا بسيطًا.

همس مالك:

- سنموت هنا إذا لَم نغادر.

- مالك، اهدأ! ماذا حدث لك وأين حسان؟

- حسان؟ لا أعلم.. افترقنا! أجاب مالك بهيستيريّةٍ.

- هُم لحقوا بنا إلى هنا، رأينا الكتابة على الجدار ثمّ سمعنا خطواتهم خلفنا واعتقدتُ.. أنّكم تبعتمونا من باب الطوارئ، ولكن لَم يكن هناك أحدٌ خلفنا.. ثمّ سمعناهم، لحقوا بنا إلى هنا، تلفتُّ حولهم بريبةٍ، هُم هنا.. قالوا.. قالوا بأنّنا لن نغادرَ وسنموت!

أسامة وقد اكتفى:

- حسنًا لا بدّ أن نغادرَ الآن!! أين حسان؟

لَم يجبهم مالك، وبدأ أحمد باقتراح أن يغادروا من دون الاكتراث لأمره، تلفّت عبد الله حولهم ليجد فتحة المصعد المغلقة بخشبٍ مكسورٍ جزئيًا، وتلك الكتابة على الجدار، اقترب منها والآخران بجانبه حتّى اتضح ما كُتب: الأسرار تُكشف والوعود تُنكث، والموت حقٌّ والنار حقٌّ وبشارة الأمين تقع ولو بعد حينٍ!

نظر كلٌّ من أسامة وأحمد لبعضهم بخوفٍ، ثم نظروا إلى مالك:

- ما الذي يعنيه هذا! من كتب العبارة!

هزّ مالك رأسه وهو يسدُّ أذنيه وَلَم يجب، بينما تراجعت خطوات عبد الله وكأنّ عقله توقّف عن العمل؛ لأنه رأى شيئًا مألوفًا له، عقله توقّف وَلَم يسمح له باتخاذ أيّ إجراءٍ من دون الهرب، لَم يفهم ما المقصود بما كتب، ولكنّه علم بأنّه أمرٌ لا طاقة له به وهمس لنفسه..

- يجب أن نغادرَ الآن.

علا حولهم صوت قهقهةٍ وضحكٍ اخترق قلوبهم قبل آذانهم، ضحكاتٍ وكأنّها تعلم يقينًا أن مصيرهم كمصير صديقهم علاء أو أسوأ!

أمسك عبد الله بذراع مالك، الذي يكاد يفقد عقله على الأرض وصرخ مرّةً أخرى بفزعٍ:

- لنغادر الآن!!

تسابقت خطواتهم نحو البهو، كانت تلك اللّحظات الأخيرة في الفندق كالاقتراب من حافّة الهاوية، حيث طغى شعور الرُّعب على عقولهم وأجسادهم، قلوبهم تدقُّ بعنفٍ، متزامنةً مع إيقاع خطواتهم المتسارعة فوق الأرضيّة المهترئة، وكلّما انعطفوا في الممرّات دعوا وتأمّلوا بأن يكون الانعطاف الأخير في طريقهم، عقولهم تطلب منهم، بل تجبرهم على الرّكض أسرع على الرغم من عجزهم عن التنفُّس، عبد الله على الرغم من قراءته لأذكاره، كان يشعر بأنّ كلماته تتلاشَى أمام هذا الفزع المريع الذي أصبح سيّد الموقف.

تصادمت أجسادهم بالبوّابة الأماميّة بعنفٍ عندما وصلوا لها، وحاولوا جاهدين فتح الأبواب التي أُغلقت بإحكامٍ، على الرغم من تأكُّدهم من أنّهم تركوا الباب مشرعًا خلفهم، لَم يكن هناك وقتٌ للتفكير بوضوحٍ، فقط رغبةٌ جامحةٌ للبقاء على قيد الحياة، أخذوا يضربون على الباب بعنفٍ، ويحاولون ركله وزعزعته من مكانه.

أسامة:

- لقد تركناه مفتوحًا! كيف أغلق الآن؟!

لَم يجبه أيٌّ منهم وَلَم يكن عقله حتّى ينتظر أيّ إجابةٍ، كلٌّ منهم في عالمه الخاصّ من الرُّعب، وفي دوّامة تفكيره الخاصّة، من دون أن يلقيَ بالًا للآخر. أحمد كان قد فقَد الأمل، وجلس ليحيط جسده بذراعيه بخوفٍ وهو يرتجف ويهتزُّ، ومالك يدور بجنونٍ ويتحدّث إلى نفسه وكأنّه قد فقد عقله تمامًا، ومَن تبقّى به ذرّة عقلٍ.. أسامة، كان يركل الباب مرارًا وتكرارًا بجانب عبد الله الذي توقّف عندما خارت قواهم وتلاشت، وأسند ظهره للباب بيأسٍ وهو ينظر لحال

أصدقائه، ويفكّر بما حصل لحسان الذي اختفى فجأةً.. لَمْ يستطع تحمُّل الفكرة بينما يأكل الذَّنب قلبه وانهار أخيرًا.

انهار على الأرض وقد انعدمت الرُّؤية في عينيه بسبب دموعه وهو يقول:

- سنموت حقًّا، كلُّ هذا بسببي! ردّد على نفسه من دون شعورٍ:

- لو لَمْ أقترح العودة من أجل الكاميرا.. لو لَمْ أقنع حسان بذلك لما فقدناه الآن.. لو لَمْ..

قاطعه أسامة بعد أن توقَّفَ عن هزِّ الباب وهو واقفٌ فوقه: لحظة ما الذي تقصده؟ بِمَ أقنعت حسان؟

تنهّد عبد الله بينما أعاره أسامة الانتباه..

- كلُّ ما يحدث الآن بسببي، أصررتُ عليكم بفكرة العودة من أجل الكاميرا، وأقنعتكم أنّ حسان مَن طلب ذلك؛ لأنّكم تعلمون أنّه لا يفوت نشرَ أيِّ حدثٍ مشوِّقٍ على القناة، ولكن بالحقيقة..

التقط أنفاسه وأكمل:

- لَمْ أرد إخباركم بالدّافع الحقيقيّ، ولكن كنتُ أشكُّ به، أردتُ أن أرى بعيني ما حدث مع علاء، أردتُ الحصول على الكاميرا وكشف الحقيقة، أنا متأكّدٌ أنّ حسان هو مَن دفعه عَبر تلك الفتحة للهاوية! متأكّدٌ! لقد سمعنا جميعًا تلك الصّرخة ذلك اليوم، وأيضًا كان حسان أوّل من وصل إلى البهو عندما عذنا، التقينا نحن بالممرّات وذهبنا لنجده وصل أوّلًا، تعمّدتُ كتابة تلك العبارة على جدار المصعد من حيث سقط علاء لأرى ردّ فعله إن كان هو مَن قتله!

صمت لِلحظاتٍ متذكّرًا العبارة وارتجفت عيناه بهلعٍ رغمًا عنه وأكمل:

- الأسرار تُكشف والوعود تُنكث، والموت حقٌّ والنار حقٌّ، هذا ما كتبتُه على الجدار، لَم أكتب العبارة الأخيرة! وكلُّ ما أردته هو استدراجه بالحديث من دون مواجهته، لَم أتوقّع أن يكون الفندق مسكونًا حقًّا، وأنّهم سيقتلونه!

وبشارة الأمين تقع ولو بعد حينٍ! ألا يعني هذا قول نبينا محمد (عليه الصلاة والسلام) «بشّر القاتل بالقتل ولو بعد حين؟»

همس أحمد:

- لا يصح هذا الحديث!

عمّ الصّمت بتلك اللّحظات، بينما هم واقفون في مواجهة الحقيقة المروّعة التي انكشفت لتوّها، كان عبد الله يدور في دوامةٍ من أفكاره التي جرّتهم لهذه المصيبة، كان غارقًا في تفكيره لَم ينتبه لملامحهم التي تغيّرت، وبدأت الملامح على وجوه أسامة وأحمد ومالك تتغيّر، مجسدةً دهشةً وعدم تصديقٍ أمام اعتراف عبد الله.

- كنت أنت!

همس مالك..

- أجل.. أجاب عبد الله رافعًا رأسه وحينها تنبّه إلى ما حدث حوله، وسَرَتْ قشعريرةٌ مميتةٌ بجسده! كانوا جميعًا يحدّقون به بنظراتٍ أرعبته، أسامة وأحمد وحتّى مالك الذي كان فاقدًا لعقله منذ لحظاتٍ

فقط، وها هو الآن عاد لرشده فجأةً.

- كنت أنت!!

انخرط مالك في نوبةٍ من الضّحك، وفزّ أحمد من مكانه بغضبٍ، وركل حديدةً بجانبه بقوّةٍ حتّى ترنّد صداها داخل رءوسهم لوقتٍ طويلٍ.

- لقد كان هو مَن خطّط لكشفنا. قال مالك وسط ضحكاته وما زال عبد الله ينظر لهم بريبةٍ محاولًا فهم المشهد.

- يا للخسارة، كان يعجبني حسان، اضطررت إلى دفعه عَبر الهاوية حتّى يخرس، والآن تخبرني أنّك مَن استدرجنا إلى هنا وليس هو! ظننته اكتشف ما فعلته بعلاء، حتى إنني لَم أقصد قتل علاء، أردتُ إخافته فقط لإثارة المشاهدات، ولكنّه ارتعب بحقٍّ وسقط من تلك الفتحة ومات!

اقترب أحمد من مالك ليهمس له بعدما التقط خشبةً من الأرض، وسيطر الصّمت لِلحظاتٍ قصيرةٍ مرعبةٍ.

وعبد الله ما زال يحاول فهم ما نطق به مالك، وسبب نظرات أحمد الغاضبة المفاجئة، وحينها تحرّك أسامة ببطءٍ شديدٍ وربت على كتف عبد الله مشيرًا للمَمرّ المؤدّي للمخرجِ الخلفيّ لِلفندق، بغفلةٍ من الاثنين أطلق أسامة قدميه لِلريح جارًا عبد الله خلفه عَبر الممرّ، كادت أقدامهم تخترقّ الأرض من ثقلها في أثناء محاولتهم اليائسة هذه للهرب، وعلى الرغم من أنّ الخوف تلاعب به وشلّ جسده، فإنه حاول الالتفات مرّاتٍ عديدةٍ خلفهم ليرى إن كانوا اقتربوا منهم،

ولكن العتمة المحيطة بهم حالت من دون ذلك.

وبلحظة لَم يتوقّعها وعبر الظّلام عبرت تلك الخشبة ضاربةً جسد أسامة بقوّةِ دفعته ليسقط،

تراجع له عبد الله وساعده على الوقوف:

- هل أنت بخيرٍ؟

لَم يجب، كان يراقب المَمرّ المظلمَ ليرى مَن تبعه، هزّ عبد الله رأسه وقال:

- لَم يلحقوا بنا، وتلاشى صوت خطواتهم خلفنا!

- وإن يكن! لنغادر أوّلًا، وتساءلْ لاحقًا! لنغادر من مخرج الخدمة الخلفيّ.

أجاب أسامة وتابع الرّكض معًا حتّى لمحت أعينهم الضّوء القادم من أسفل الباب بنهاية المَمرّ، وعاد الأمل لهم بالنجاة حين سمعا صوت سيارة الشُرطة وعلموا بأنّهم نجوا الآن، تنهّد عبد الله وتباطأت خطواته بينما حينها فقط، تضاعفت سرعة أسامة وركض بكلّ قوّته حتّى توسعت الفجوة بينهم.

اصطدم أسامة بالباب بقوّةٍ ودفعه للخارج، وهالةٌ من الضوءِ الخارجيّ غمرته، حين سقط وتدحرج وهبّ على قدميه ليكمل الركض:

- ساعدوني!!

ركض مسرعًا باتجاه السيارة التي أضاءت بالأزرق والأحمر، وصرخ

أسامة مزّةً أخرى صرخةً دفعت أحد رجال الشُرطة للخروج من السّيارة مشهرًا سلاحه، والآخر اقترب بحذرٍ وهو يرى تعابير الرُّعب على وجهه الشّاحب. وصل لهم واختبأ خلفهم فورًا ورفع إصبعه باتجاه عبد الله الذي خرج للتوّ:

- يريد قتلي!

وقف عبد الله ينظر نحوهم بلا فهمٍ حين شاهد الشُرطيّ يقترب منه مشهرًا السّلاح بوجهه، ويطلب منه التوقُّف ورفع يديه. لَم يفهم عبد الله!

لَم يفهم سابقًا وهو أمام باب الفندق، وَلَم يفهم حين قال مالك إنّه أراد كشفهم! مَن قصد تحديدًا بذلك الجمع.

لَم يفهم حتّى عندما سأله الشُرطيّ لِمَ كنت تركض خلف أسامة! ولِمَ لَم يُصدّقه حين أجابه أنّه كان يركض معه، وَلَم يكن يركض خلفه. وَلَم يفهم الآن وهو على ركبتيه منهارًا ومهزومًا على الأرض أمام الفندق، بينما تأخذ الشُرطة أصدقاءه مالك وأحمد بلطف نحو سيّارة الإسعاف. لكنّه أدرك أنّ محاولته لكشف الحقيقة دفعته وحده نحو الهاوية، ضاع في دوامةٍ من الندم والأسى الذي لا يمكن الشّفاء منه، يصرخ من دون أن يسمعَه أحدٌ، وهو يغرق في ظلال الحقيقة التي اختلطت بدموع مَن ظنّ أنهم أصدقاؤه.

وقف ببؤسٍ والشُرطيّ يقيّد يديه ويجرُّه نحو السّيارة وسألهُ

- لِمَ فعلت ذلك؟

- لَم أفعل شيئًا، كلُّ ما أردتُه هو معرفه الحقيقة. أجاب والدُموع

تنهمر من عينيه.

- شهد أصدقاؤك ضدّك يا عبد الله، قالوا إنّك اعترفتَ لهم بدفع علاء، وافتعلتَ شجارًا معهم حين اتصلوا للإبلاغ عنك، ونحن سمعنا ذلك أيضًا في أثناء الاتصال، قالوا بأنّك فعلتَ ذلك لتحصد المشاهدات على قناتكم باليوتيوب!

- مستحيلٌ، تشاجرتُ معهم لأنّهم استمرُّوا بإهانة شخصٍ مَيتٍ! هُمْ! هُمْ! مَن قتلوا علاء وحسان..

- حسان! قاطعه الشُرطيّ بتعجُّبٍ ثمّ قهقه وهو يزجُّ به في المقعدِ الخلفيّ للسّيارة، وقال:

- كان عليّ أن أعلمَ أنّني أتحدّث لشخصٍ مجنونٍ.

- لستُ مجنونًا، عودوا للدّاخل وابحثوا عن حسان، لقد قتلوه.. أنا متأكّدٌ!

- يا رجل حسان هو مَن اتصل بنا، وها هو هناك يعطي إفادته بالتفصيل لِما حدث.

صفع الشُرطيّ الباب وهو يشاهد عبد الله ينظر بصدمةٍ تجاههم، ثمّ تحولت ملامحه لأخرى شبيهةً بالجنون وهو يبكي ويصرخ ويضرب على النافذة، فقط حين استوعب الحقيقة.

جميعهم قتلوا علاء من أجل المشاهدات على القناة، كانت حادثةً، ولكنّهم تسرَّعوا عليها، وحين اقترب من معرفة الحقيقة أوقعوا به! حسان لَم يمت، وأحمد لَم يكن خائفًا وأسامة لَم يحاول الهروب معه، كانوا يتلاعبون به ولكنّها الحقيقة انكشفت في وقتٍ متأخّرٍ جدًا.

وسواس من الإنس

كان يا مكان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، يُحكى أن رجلًا فقيرًا يُدعى مهران، كان يخرج كل صباح مع صديقه غُدي ليحتطبا في غابة قريتهما، ثم يبيعان الحطب لأهل القرية ليحصلا على قوت يومهما ويطعما أسرتيهما. كان مهران قنوعًا، يرضى بما قسمه الله له، بينما كان غُدي يحدوه طموحٌ لا يعرف حدودًا.

في أحد الأيام، وبينما كان مهران يسند ظهره لجذع شجرة بعد أن أعياه التعب وتلاشَى ما تبقى من طاقته، سمع صوتًا خافتًا هامسًا قادمًا من اتجاه مجهول. تلفت حوله بريبة وذكر الله حين لم يجد صديقه غُدي، ظن أنها هلوسات أصابته بسبب اجتهاده في العمل تحت أشعة الشمس. طالما حذرته زوجته من ذلك، ولكن سرعان ما تلاشت شكوكه حين سمع الهمس بوضوح قادمًا من اتجاه قريب خلفه، اتجاه يعرفه جيدًا؛ لأنه طالما تجنب الذهاب إليه، فقد كانت الأرض قاحلة والأشجار جافة. تذكر أن والده قال له دائمًا:

«يُهان ذا البأس، إن ضرب ما جف بالفأس»

لذا تجنب احتطاب الأشجار الجافة في تلك المنطقة. تقدم خطوات بسيطة بانتظار أن يسمع الصوت مجددًا، وسرعان ما لمح البئر الكبيرة على مرمى من عينيه، بئر قديمة ومهجورة. اقترب بحذر، وقرأ العبارة المنحوتة على أطراف البئر:

«اشرب وخذ لترتوي من الفقر، وصن السرّ لتأمن من الغدر».

كان يلتف حول البئر بذهول وقد تناسَى لوهلة أمر الصوت حتى

أتاه مجدّدًا يتردد من داخل البئر:

- يا مهران، لا تخف، ففي قاع هذا البئر كنز من الذهب.

تفاجأ مهران في البداية، بل خاف أيضًا، ولكن فضوله دفعه للتحدث مع الصوت داخل البئر:

- مَن أنت؟ وماذا تريد؟ وكيف تعرف اسمي؟

أجابه الصوت:

- لا أريد شيئًا، أشعر بالوحدة، وثمن ارتوائك من البئر هو حديثك معي.

لم يصدق مهران، وكلما تحدث إلى الغريب في البئر اعتقد بأنه قد جُن، أو أنه يتحدث الى جِن، أو أنه بدأ فعلًا بالهلوسة، ولكنه بقي يتحدى عقله والمنطق، ويتحدث مع الصوت حتى قال له:

- خذ نصيبك هذا اليوم، وغُد غدًا، فكرم البئر يمتد بحجم فضولك وبطول لسانك، ولا تنسَ أن تمد يدك بكرم فيُمد لك.

لم يفهم مهران ما قصده، ولكنه استنتج أن عليه أن يبادر بالكرم، قهقه في نفسه وهمس «يا لها من بئر حكيمة» ثم سأل الصوت في البئر..

- لماذا لا تخرج؟ وماهي قصتك؟

أجابه الرجل:

- أنا هنا لأني لا أستطيع المغادرة، وستفهم قصدي يومًا ما. أمّا قصتي فهي قصتك، وما أتى بك أتى بي من قبلك.

لم يكترث مهران بعد ذلك، سمى الله وألقى بالدلو في البئر، ورفعه ليجد فيه قطعًا من الذهب لمعت أسفل المياه الصافية في الدلو. شرب وارتوى وعاد بقطع الذهب غير مصدّق. لم يخبر أحدًا بسِرّه، وظل يذهب إلى البئر كل يوم، يحتطب، يتحدث إلى البئر ثم يرتوي من مائه ويأخذ من ذهبه ويبيعه. ثم لاحظ مهران أن قطع الذهب تزداد بزيادة أسئلته وأحاديثه مع البئر، وتزداد أكثر كلما تصدق منه، وبالفعل أصبح يقضي وقتًا في الحديث مع البئر أكثر من وقته في الاحتطاب، حتى إنه لم يعد يرى غُدي، ولم يعد يبيع الحطب. بدأ يغتني شيئًا فشيئًا، فقلّت أيام احتطابه من عدة مرات في الأسبوع إلى عدة مرات في الشهر، ثم توقف تمامًا عن الذهاب، وأصبح تاجرًا كبيرًا عُرف بصِيته وكرمه، وله مجلسٌ يجلس فيه كبار القوم وأصحابه من الأغنياء والتجار.

في يوم من الأيام، زاره صديقه القديم غُدي، الذي فوجئ بما وصل إليه مهران من ثراء. ملأ الحقد والحسد قلبه، وتساءل كيف له أن يغتني بهذه السرعة؟ وهو الذي كان يحتطب معي كل يوم؟ لا بد أنه سرق!

وترسخت تلك الفكرة في عقله أكثر حين جلس في أحد مجالسه من دون علم صديقه، ورأى بعينيه ما وصل إليه من بذخ وكرم وعطاء للجميع.

وقف يومًا ما في منتصف المجلس وقال بصوت يسمعه الجميع، مهران وأبناؤه وضيوفه:

- يا مهران، هل نسيت أيام الاحتطاب؟ أرى أنك اغتنيت ولم تَعُد

تسأل! هل أنساك الغِنى أصدقاءك؟

رحب به مهران وكان ذلك ما أراده عُدي ليؤكد للجميع أن علاقتهما وطيدة وحتى يصدقوه بما أراد قوله تاليًا: - إذًا يا مهران، كيف لك أن تصبح تاجرًا كبيرًا خلال أشهر وأنت الذي كنت لا تملك شيئًا؟

شعر مهران بالإحراج، وبدأ الجميع ينظرون إليه بشَكٍّ، وسألوه:

- ما الذي يتحدث عنه صديقك؟

حاول جاهدًا تبرير موقفه ولم يفلح، وانهالت عليه الأسئلة أكثر خصوصًا مع إصرار عُدي على استحالة أن يصبح صديقه غنيًا إلا إذا كان قد سرق. وعلى الرغم من استماتته دفاعًا عن نفسه ضد هذه الفكرة، فإن الأسئلة والتكهنات كثرت حوله، ولم يَعُد باستطاعته الردّ عليهم جميعًا حتى قال له أحدهم:

- لم نكن نعلم أن رزقك حرام، وإلا لما جلسنا إليك يا مهران.

برّر موقفه لهم مجددا، ولكن ازداد الأمر صعوبة، بل وبدأ بعضهم يتحدث عن سجنه حتى تتضح حقيقة أمواله، ومَن الذي قد شرق من قِبله. أخبرهم أنه لن يصدقوه وإن قال الحقيقة، وهو كان موقنًا بذلك:

- لن تصدقوني وإن أخبرتكم، أقسم أنني لم أسرق أحدًا.

فقال عُدي من بين الناس:

- قيل للكاذب احلف، قال أتى الفرج.

لم يجد مهران مفرًا من إخبارهم بسِرّ البئر، فجلس بيأس وجلسوا

إليه وقصّ عليهم ما حدث منذ البداية بينما اعتلت وجوههم تعابير تنوعت ما بين الصدمة والتصديق والتكذيب والشفقة، ففي أفضل الأحوال بدا لهم كمجنون غنِي، أو أنه لا يريد إخبارهم عن سرّ أمواله، خصوصًا بعد أن علموا أنه لم يرثها.

- قصتك لا تصدق يا مهران! أتقول إنك تحدثت إلى بئر وإن البئر ردّت عليك، وأعطت إياك الذهب؟ كل يوم؟

أكد لهم ذلك، ولكن استهزاءهم به أخبره أنهم ما زالوا لم يصدقوه فقال بيأس:

- حسنًا، سآخذكم له.

فضحكوا:

- مللنا أكاذيبك يا مهران.

- ولكني لست أكذب!

- هذه قصة لا تدخل العقل العاقل، ولكن لا بأس سنأتي معك، وإن كنت كاذبًا واتضح أنك سرقت الأموال، فسيتم قطع رأسك.

توجه مهران والجميع معه إلى تلك المنطقة، حيث البئر وضحك في نفسه وهو يسمع صوت الأشجار الجافة الذي بدا كفحيح الأفاعي، وتذكر كم كانت حياته أسهل حين كان كل ما يخشاه هو أن تُهان سمعته ويوصف بالضعف؛ لأنه يقطع الأشجار الجافة الهشّة.

دار حول المنطقة لمدة حتى كاد يأخذه اليأس ويقنعه عقله بأنه قد جُن، وحين بدأت الشكوك تتهامس حوله، دار حول المنطقة كثيرًا

وهم خلفه حتى توقفت قدماه فجأة على مظهر البئر المهيبة أمامه، ذات البئر الذي لم يزرها منذ مدة طويلة. أشار لها وأخبرهم:

- هذه هي بئر الذهب، أخبرتكم أنني لم أكذب ولم أسرق.

تجمعوا حوله، وبدأ مهران ينادي ويتحدث ويخاطب صاحب البئر، ولكن لا أحد يجيب.

- لقد أحضرتنا إلى هنا لتتلاعب بنا! أما يكفي كذبًا يا مهران؟

نظر لهم بتوتُّر وقال:

- لا بأس، أنا متأكد أن البئر فيها ذهب الآن، سأنزل الدلو.

ولكن عندما ألقى بدلوه، لم يجد الذهب، ولم يسمع أي صوت، سوى صدى صوته يرتد له من البئر. نادى مهران بصوت عالٍ، ولكن لا أحد أجاب.

حين التفت لهم كانت أعينهم تستشيط غضبًا، وقد سحب أحد الرجال فأسه وأسندها على كتفه أمام عيني مهران. أفزعه ذلك المنظر ودفعه للتراجع بخوف. تلعثمت الأحرف بين شفتيه بينما يتقدمون منه، وبلحظة خوف وتوتُّر اندفع جسده للخلف حين انزلقت قدمه وسقط مهران إلى قاع البئر، واستطاع أن يسمع صوت تكسر عظامه حين اصطدم بالقاع. صرخ من مكانه بألم وكلما تحرك سمع صوت فرقعه عظامه أسفله، نادى من مكانه:

- أنقذوني أرجوكم.

سرعان ما جاءه الرد بصوت صديقه..

- ليكن هذا درسًا لك ولأبنائك من بعدك، فستؤخذ ثروتهم التي سرقها والدهم!

بقي يناديهم بألم ورعشة خوف في صوته، ولكن من دون جدوى، وسرعان ما أدرك أنه بخير حين تحرك عدا من ألم السقوط وأن صوت الفرقعة الذي سمعه، كان للهياكل العظمية المكدسة أسفل جسده.

شخصت عيناه بفزع بينما يتلفت حوله، فوجد هياكل عظمية متناثرة. وكانت الضربة الأخيرة لعقله قبل أن يُجَن، حين سمع صوت ضحك خافت، ذات الصوت الذي اعتاد سماعه وأعاد له الذكريات، والتفت خلفه ينظر تجاه الصوت ووجد رجلًا بمثل عمره أو أكبر قليلًا، بدا وكأنه قد مضى عليه وقت طويل في البئر، فقد التصق جلده بعظمه تمامًا ولا فرق بينه وبين الهياكل حوله سوى كونه ما زال ينطق. نظر إليه الرجل بابتسامة ذابلة وقال له:

- لقد أخبرتك، قصتي قصتك، وما أتى بي أتى بك.

خدعة أم حلوى؟

قبل الحفل بساعة..

عيناها لمعتا بسعادة وهي تضع اللمسات الأخيرة، تنظر في المرآة بفخر وحماس لاكتمال مكياجها التنكُّري، كانت تخطط لهذه الليلة منذ أشهر، حفلة خارجة عن المألوف، فرصة لتتفوق على جميع صديقاتها بهذه الفكرة، حفل تنكري لتوديع عزوبيتها.

التفتت بحماس لصديقتها تهاني وأختها ليلي بجانبها وابتسمت بحماس..

- اليوم.. سيكون مختلفًا، سيتذكرون هذا الحفل للأبد

ليلى بوجه متجهم..

- ليال.. هل أنتِ متأكدة من فكرة الهالوين هذه؟ الأمر مخيف أكثر من اللازم.

لم تُجب ليال، اكتفت بمشاركة نظرات مبهمة مع تهاني قبل أن ينفرطوا بالضحك بشكل مفاجئ أفزع ليلي، بل وارتجفت بفزع لاحظوه، ما زاد صخب ضحكهم أكثر.

- جبانة! قالت أختها.

وساندتها تهاني فورًا

- يا لكِ من طفلة، كنت أعلم أنك ما زلت غير ناضجة، لِمَ سمحت لها بالحضور ليال؟ كان يجب أن تبقى في المنزل مع الصغار.

- لأنني احتجتها هنا لترتب توزيع المقاعد والحضور، للأسف.

استاءت ليلى، بدَا ذلك على ملامحها.

- سأغادر إن كان وجودي مزعجًا لكم، هذه الحفلة غبية على أي حال. همّت بالرحيل لولا تمسك أختها بذراعها فجأة.

- إنها مزحة، أرجوك أبقي، لا أستطيع القيام بأي شيء بدونك؟ ليس لديّ وقت للتأكد من كل شيء بمفردي، وساري لم يصل حتى الآن، والزي الذي سأرتديه معه، والكعكة والسكين التي نُقِشت عليها أسماؤنا، إن غادرتِ سوف أموت.

قالت بدرامية مصطنعة وترجّتها بشكل متكرر.

قلبت ليلى عينيها وتأففت..

- حسنا، ولكن ليس من أجل تمثيلك السيئ الآن، بل لأن السائق سيصل متأخرًا. أجابت على مضض، وجلست باستياء بادٍ على ملامحها وأكملت..

- سأتصل بساري لأرى أين أصبح؟

هزت ليال رأسها موافقة لها وقالت:

- أتمنى ألا يتأخر، أقسم آني لن أسامحة هذه المرة، بكل مرة يفعل شيئًا غبيًا ليعكر مزاجي، ذكر مسبقًا أنه أراد التحدُث لي بأمر مهم، أتمنى ألا يكون مقلبًا آخر سخيفًا منه!

ليلى لم تجد جوابًا لما قالته أختها سوى الصمت، وهي تبحث عن رقم ساري في هاتفها لتتصل به، بينما شرعت تهاني بمواساة

صديقتها وإخبارها مجدّدًا، هكذا هم الشباب.

تزامن رنين هاتف ليلى معلنا الاتصال بحركة الباب المفاجئة حين دخل عليهم ساري بباقة يحملها بإحدى يديه، والزّي التنكّري على ذراعه، وباليد الأخرى يحمل القهوة التي أحضرها للفتيات، وبجيب سترته أضاءت شاشة الهاتف الذي كان يرن لمدة؛ من دون مقدرته على الإجابة.

وبشكل مُبالَغ به، عيناه لم تتزحزح عن خطيبته أمامه، وكأنه خشي النظر إلى غيرها، لم تلتفت عيناه حتى لأي شيء آخر سِواها، واتسعت ابتسامته وانحلت العقدة بين حاجبيه، وهو يتقدم لها ويمرر حامل القهوة والزّي لصديقتها.

- يعجز لساني عن وصف ما أراه، تبدين بقِمّة الجمال والأناقة، أعتذر لتأخري.

قَبّل جبينها وابتسمت بخجل حين ناولها باقة الورد، ولم تلبث حتى عبست حين أدركت أنه استبدل زهور الزنبق البيضاء المفضلة لها بأخرى لم تراها من قبل، وسارع بالتبرير لذلك..

- اخترتها لتكمل طلتك اليوم، أخبرتني ليلى عن ثيم الحفلة التنكري، وأردت مفاجأتك، هذه الزهرة تتماشَى مع زيك التنكري، تُدعَى زنبقة العنكبوت الأحمر، أردت تعويضك عن استيائي من الفكرة بالبداية، ولكنني أدعمك الآن وكل ما أريده هو سعادتك.

سرعان ما تنحّى عبوسها حين أدركت كم هو محق، وكيف أنه اختار الزهرة المناسبة لزيّ ذات الرداء الأحمر، وابتسمت مجدّدا

بخجل..

- شكرًا ساري، هذا يعني لي الكثير.

- ساري لو لم أكن أعلم مسبقًا أنك واقع في حبها، لشككت بأنك ممثل بارع، ولا أرغب بإفساد هذه الأجواء الآن ولكن ليال لديها حفل لتستعد له وأنت أيضًا. تمتمت تهاني خلفهما لحث ساري على المغادرة بعد أن طالت أحاديثه مع خطيبته.

- أعددت لك مفاجأة خاصة اليوم، ستحبها كثيرًا.

همست في أذنه وهي تضحك ونظرت إليه بحب وامتنان، وابتسامة عريضة ارتسمت على وجهها، بينما لم يجد ردًا لها سوى بالصمت وابتسامة طفيفة.

بدأت الحفلة بمجرد وصول آخر المدعوين، وإجابته على اللوح الذي وضع بمنتصف القاعة بذات السؤال الموجّه للجميع (خدعة أم حلوى؟)

استمتع الجميع بالرقص والموسيقى الصاخبة ومقارنة أزيائهم التنكُّرية. كل شيء كما خططت له ليال بحماس مطلق، والجميع ذهل بهذه الفكرة المختلفة.

استقر الجميع أخيرًا في مقاعدهم، بانتظار العرض الذي تحدثت عنه ليال كثيرًا، كانت الأجواء مملوءة بالضحك والمرح، الكل كان يترقب ما ستقدمه من أداء. خفتت الأضواء وأنارت الشاشة أمامهم بنَص بدا كتحذير لطيف.

من أجل سلامة الجميع، الزموا مقاعدكم منعًا للحوادث والاصابات

حتى ينتهي العرض وتُضاء القاعة مجدّدًا

انتشر الضباب حولهم وموسيقى خافتة كتلك التي اشتهرت في أفلام الرعب، بدأت مقدمة الأغنية مألوفة للجميع واستمر تساؤلهم وهمساتهم فيما بينهم عمّا يحدث حتى على صوت ليال حولهم من مكبرات الصوت

تعالت قهقهات وصرخات مفاجئة حين تلى ذلك ظهور الراقصين الاستعراضيين فجأة بينهم ومن خلف مقاعدهم، وبدأت المقدمة المشهورة لأغنية (ثريلر) تزامنًا مع أداء الراقصين للحركات، بأزيائهم التنكُّرية، كأنهم مجموعة من الذئاب، تمامًا كالقصة المصورة.

في ذات الأثناء تأملت ليلى باقة الورد الحمراء التي بدت مخيفة بالنسبة لها وكئيبة، تأملتها بحزن وشفقة، تعلم أن ليال لم تكن لتفهم ما قصده ساري بهذه الزهرة تحديدًا، فنظرتها للأمور كانت سطحية جدًا، ولا تتجاوز حدود ما يعرفه إدراكها هي وصديقتها تهاني، وحتى ساري، رحّب بالفكرة ونفذها فورًا، وكرر على مسامع ليال ما قالته هي له، أن زهرة زنبقة العنكبوت الأحمر تتماشى مع ثيم الحفلة، من دون معرفة أي منهم أي شيء آخر عنها.

كانت في طريقها لرؤية ليال، واستوقفها صوت مرتفع، قادم من اتجاه الغرفة حيث أختها، ارتفع صوت ساري وعلمت حينها أنه لم يغادر، وعاد خلسة ليلتقي بليال من دون علمهم، عقدت حاجبيها باستياء، فقد بدا لها أن أمرًا ما قد حدث بينهم، خصوصًا وصوت أختها تردّد بذات العبارة مرارًا وتكرارًا «لا أصدق تطلب منّي فِعل هذا الآن! واليوم من كل الأيام؟ في يوم الحفل! لا أصدق أنك تفعل هذا

بي!»

اشتدت قبضة ليلى بغضب، واسترقت السمع أكثر، ولكن سرعان ما خشيت أن يفتح أي منهما الباب ويراها تقف هناك وتستمع لهما، خصوصًا حين سمعت ليال تهدِّده بفضيحة مدوِّية، وأن الأمر لا يُغتفر، حاول تهدئتها وأخبرها أنه لن يغادر حتى تهدأ، وإن تطلب الأمر إلغاء الحفل الآن، اقتربت ليلى محاولة الاستماع لهما بوضوح من دون لفت الانتباه، ولكنها تفاجأت بساري حين فتح الباب بملامح منزعجة ونظر لها بصدمة،

- ما الذي حدث؟ سألته بتوتُّر، ولكن لم يجب.

- هل فعلت شيئًا لها؟ هل أجبرتها على فعل شيء لا تريده!. سألته بصدمة وتوتُّر.

تفاجأ لوجودها ولسؤالها، وكيف فسّر عقلها ما حدث، ثم عَبَر من جانبها من دون أن يكترث، بل وكاد يدفعها لتتنحى عن طريقة.

بعد نصف ساعة، شلطت الإضاءة على مدخل المنصة، وترقب الجميع ظهور ليال، ازدادت التصفيقات وتتالت حتى فُتح الباب وظهرت ليال واقفة أمامهم، حركت شفتيها بعبارة لم يسمعها أحد لعلوّ الموسيقى حولهم، بل وتعالت التصفيقات أكثر لإطلالتها المذهلة، الرداء الأحمر، البشرة البيضاء الشاحبة، سلة خشبية صغيرة تحملها بذراعها التي تلطخت باللون الأحمر، وتلك الملامح المرتعبة بمجرد أن أصبحت أمامهم في غابة الذئاب كما أرادت؛ لتبدو تمامًا مثل ذات الرداء الأحمر، تائهة، خائفة، مصابة وبانتظار أميرها لإنقاذها.

خطت نحوهم للأمام بملامح مرعوبة بينما يقترب منها الذئاب، وكأنهم قد ميزوا رائحة الدماء على ردائها الأحمر حين آذت نفسها في الغابة، تلفتت حولها بخوف وهي تُردد كلمات مبهمة، يحاولون الوصول لها والنّيل منها ولا يستطيعون، وكأن تلك الإضاءة البيضاء الناصعة تبقيها بأمان منهم، يمدون أيديهم حتى أطراف الضوء ثم ينسحبون متألمين، بينما أخدت هي خطوات ثقيلة وبطيئة بينهم، حتى أصبحت في منتصف المنصة، بدأت الإضاءة بالتلاشِي شيئًا فشيئًا، وأصبح من السهل على الموتى الأحياء لمسها، والحوم بقربها محاولين جزّ ردائها وسحبها للظلام، اقتربوا منها أكثر فأكثر حتى أصبحوا ككومة من السواد تغطيها، بينما انهارت على ركبتيها بينهم، وعمّ الصمت عدا من صدى الهواء الذي انبعث من المكبرات وعواء الذئاب.

ترقب من الجميع وأعين فضولية لمعت في الظلام بحماس لاستكمال العرض.

عادت الموسيقى أصخب من ذي قبل، وانتشرت الإضاءة من السقف نحوها تزامنًا مع دخول الفارس المنقذ، خطيبها ساري تقدم نحوها بينما هربت الذئاب مختبئة بخوف، ولم يبقَ حولها أحد، تلك اللحظة التي يفترض بها الوقوف فجأة لتلتقي بمنقذها، كان يفترض بها خلع ردائها لتكشف عن فستان يليق بها، ولكنها بقيت ساكنة كما هي. ليال لم تنهض، لم تتحرك، وبقيت على الأرض حيث جلست على ركبتيها ورأسها على الأرض يخفي ملامحها.

وقف الجميع وصفقوا بحماس، معتقدين أنها أتقنت الدور، لحقها

على الاستمرار، ضحكوا لمبالغتها في التمثيل، حتى بعد أن تردد صوت ساري وهو يقول العبارة التي اتفقوا عليها لتعود للحياة. صمت الجميع، وتوقفت حركتهم بينما يتشاركون نظرات الحيرة، انتهت الموسيقى، لكن ليال ما زالت فى مكانها على الأرض.

مرت الدقائق وبدأ الشك يتسلل إلى قلوب بعض الحضور، توقف الضحك تدريجيًا وتعالت الهمسات. كان ساري أول مَن أدرك أن هناك خطأ ما، حين هزَّ جسدها الذي بقي في مكانه، جُثَّة هامدة.

«كانت حفلة توديع العزوبية تنكُّرية»

هذا ما قاله الجميع للمحققة التي استجوبتهم، أخبروها أن ليال كانت على قيد الحياة أمامهم منذ دقائق، وأنهم اعتقدوا أن سقوطها جزء من العرض لا أكثر، حتى إن الراقصين حولها لم يتعجبوا من سقوطها، بل أكملوا العرض حتى النهاية.

آخر مَن استجوبته الشرطة كان ساري، حيث إنه كان فى حالة صدمة غير مصدِّق لما حدث، كان شريكها بالعرض، وآخر مَن كان معها قبل صعودها على تلك المنصة، مطعونة وتطلب المساعدة، وقبل أن يدرك ساري، كان رجال الشرطة يقتادونه مكبّل الأيادي، المتهم الوحيد، والسكين التي طعنت بها تحمل بصماته.

سألوه ولم يُجب، بقي يحدِّق بشرود في المجهول، وهو يتأمل حاله في السجن، أرادو الحصول على اعتراف، ولكنه لا يملك واحدًا.

- لا تُضِيِّع وقتنا يا ساري، نعلم أنك قتلتها، البصمات لا تكذب، ربما لو أنك تخلصت من السكين بشكل جيد لما اكتشف أحد فعلتك، كل

ما نريده هو السبب، فأسرتها بحاجة إلى الخلاص.

خفض رأسه بندم وخجل وقال بتردد:

- لم أقتلها، أخبرتكم، لم أقتلها.

- وكيف تفسر نهاية الأمور بتلك الطريقة؟ لِمَ الندم بادٍ على ملامحك لهذا الحد؟ هل كانت لحظة غضب ندمت عليها؟

- لا أعلم، ذلك اليوم.. لم أستطع التحمُّل أكثر من ذلك، أخبرتها بالحقيقة، أخبرتها أنني لا أستطيع التظاهُر أكثر، وأنني لن أرى مستقبلًا سعيدًا لنا، أخبرتها أنني لن أتجاوز مشاعري لحبيبتي السابقة، حاولت أن أتجاهل كل شيء، ولكن بكل مرّة أنظر لها.. لا أستطيع، ذلك اليوم عزمت على التحدث إلى والدها لتصحيح الأمر، وأخبرتها أنني سأنهي خطبتنا وهي غضبت جدًا، هذا آخر ما أتذكره، فبعد مغادرتي ارتديت الزّي وبقيت أنتظر في الردهة خلف الباب حتى أدخل حين يحين وقتي.

نظر المحققان لبعضهما نظرة تأكيد، أخرج أحدهما الأصفاد ليعيدها ليديه، بينما يطلب منه الآخر النهوض ليذهب معهما. كأن أمرًا ما، اتضح لهما الآن، ودفعهما لتأكيد شكوكهما نحوه.

- سألهم، لماذا؟.

- ما قلته الآن يا ساري يؤكد أنك قتلتها لتتخلص منها، لا بد من أنها رفضت الانفصال عنك، هذا كل ما نحتاج إليه لإخبار أسرتها.

- ولكن! اسألوا أختها ليلى! لقد رأتني أغادر وليال بخير تمامًا، هي آخر مَن رآها، وكانت معها من بعدي، وكانت بخير، تأكدوا منها!

- فات الأوان على الكذب، أخت خطيبتك تقول إنها لم ترَ شيئًا، ولا تعلم بأمر شجاركما، وصديقات ليال يؤكدون وجودها بالقاعة في أثناء الحفل.

نظر بصدمة وبشرود دام لوقت طويل، وابتسامة نمّت على شفتيه لم توافق الحيرة الحزينة التي تشكلت بعينيه، وكأنه لم يفهم ما حدث بعد، أو أنه فهم، ولكن متأخرًا جدًا.

صمت ساري، ونظر إلى المحقق بعينَين مملوءتين بالدموع والخوف. فقد أدرك فى تلك اللحظة أن حبيبته السابقة قد أوقعت به. تذكّر كلمات ليال التي قالتها له ذات مرّة عندما طلب منها ألا تُحضر ليلى معها في كل مناسبة، وكل مرّة يخرجان معًا..

«عندما تقدمت لي، اعتقد الجميع أنك تقصد ليلى، لأنها الأجمل، والأصغر سنًا، وهي أيضا كانت سعيدة واعتقدت ذلك، ولكن والدتك أخبرتنا أنها أرادت الابنة الكبرى، وهذا أحزن أختى كثيرًا؛ لذا أحاول أن أكون إلى جانبها وأشركها في كل شيء كيلا تحزن».

فهم ما حدث، وفهم تلك النظرة المصدومة على وجه حبيبته ليلى عندما رأته يغادر غرفة أختها قبل بداية الحفل، اعتقدت أنه لن يفي بوعده لها وتصحيح خطأ والدته.

كانت ليال تتمنى أن تكون «خدعتها» لا تنسى، لكن خدعة ليلى هي التي جعلت الجميع يتجمدون في مكانهم، فقد كانت خدعتها مميتة.

اليوم الذي رأيت فيه الشيطان

سرت رعشة قوية بجسدي وارتجفت يداي المسنَدة على طرف المغسلة بقوة، تمسكت بالطرف الرخامي بغير تصديق، وهززت رأسي لعلّني أفوق وأعود للواقع، نظرت للمرآة برعب لا تحكم لي به، ولا سبيل لي للخلاص منه، ضربات قلبي كادت تُسمَع وحبيبات العَرَق على جبيني تساقطت أمامي لتندمج مع المياه المهدَرة من الحنفية.

قراري بالانتقال إلى هذا الحي الهادئ كان الأفضل على الإطلاق، كطالب جامعي في كلية الهندسة في عامِه الأخير، كنت أبحث عن مكان أستطيع فيه التركيز على دراستي بعيدًا عن صخب المدينة. وجدت ضالتي في كراج عائلة لطيفة في إحدى الضواحي الهادئة، بعد أن أوصى بي أحد أصدقائي لهم، وأكدوا لهم أنني طالب مجتهد وذو سيرة حسنة، وأنهم لن يمروا بأي من المتاعب المعهودة من المستأجرين عادة معي، حتى إنني لم أحصل على مخالفة سير واحدة في حياتي على الرغم من قيادتي لسنوات.

المنطقة بأكملها هادئة، وأغلبية مَن يسكنون الحي كبار بالسن، أو أسَر صغيرة انتقلت له مؤخرًا، المنزل بجوارنا لا يقطنه أحد، نسبة الأمان كانت عالية جدًا نظرًا لكونها إحدى الضواحي المرموقة، والحي بأكمله على الرغم من خُلوّه من كاميرات المراقبة، كان مسوّرًا، وله بوابة وحارس يتحقق من الجميع عند دخولهم. أمّا الكراج فكبير بما يكفي ومجهّز بكامل الاحتياجات، المكان المثالي لسكن مؤقت حتى وقت التخرج. بدأت إجراءات الانتقال بعد أن قدمت لهم عدة إثباتات وسجلًا إجراميًا نظيفًا، وفحوصات طِبية

تؤكد أنني لا أتعاطى ولا أشكو من أي أمراض قد تستدعي تدخلهم أو اهتمامهم بي، وحتى بعد ذلك أكد لي صاحب المنزل أنه سيضعني تحت التجربة لثلاثة أشهر، وبعد ذلك سيقرر إن كان سيمدّد العَقد معي حتى نهاية العام.

مرت الأشهر الثلاثة بسرعة وبهدوء، لم أرَ أفراد الأسرة خلالها سوى عدة مرات قليلة، حافظت على شروطهم، وانشغلت بدراستي حتى كادوا ينسون وجودي في كراج منزلهم، أصبحت جزءًا من المجتمع، والجيران يتبادلون معي الابتسامات والتحيات. كنت أعيش حياة مثالية، مليئة بالسّكينة والتركيز. التزمت السداد في الوقت وشرّ صاحب المنزل، بل وتعجل في توقيع العقد بمجرد انقضاء الأشهر؛ ولأن الحياة ليست عادلة أبدًا، ابتدأ جحيمي في اليوم التالي لتوقيعي للعقد.

عائدًا في وقت متأخر من المكتبة الجامعية حين لاحظت وجود ثلاثة أشخاص أمام المنزل المهجور المجاور لنا، في الحقيقة أول ما لاحظته كان علب المشروبات الغازية الملقاة في الشارع بتلك المنطقة، وكومة أخرى من النفايات تناثرت مع الهواء بشكل لافت أمام عيني، منظر غريب على حيٍّ لا وجود لمراهقين أو أطفال به حتى. حين التقت عيناي بأعينهم أشرت لهم بالتحية وابتسامة منهكة، بينما اكتفوا بالتحديق بي من دون أدنى ردّ فِعل حتى اختفوا من محيط عيني خلف باب غرفتي، سرعان ما تناسيت أمرهم، ولعلهم مجرد فتية تسللوا للحي خلسة وقرروا التسكُّع حول المنزل المهجور، بمجرد أن وضعت رأسي على الوسادة، انبعثت تلك الموسيقى الصاخبة مُزلزلة أركان مسكني المتواضع.

بتلك اللحظة رجحت كفّة صبري وإنهاك جسدي، ما دفعني لتجاهل الوضع بأكمله، بالغد سأبلغ الحارس بما حدث، ولا مشكلة بأن أخلد للنوم مبكرًا، فقد قضيت اليوم بأكمله أنهي مشروع التخرج. وصحيح أنني أصبت بنوبة صداع مزمنة باليوم التالي، ولم أستطع التركيز بكامل طاقتي بسبب الليلة الماضية، لكنني نجحت بالصمود ولم أطق صبرًا حتى أعود لهدوء غرفتي.

لم أعلم حينها أنني سأجد نفسي في مأزق لا خلاص منه، عدت مساء ذلك اليوم، وأخبرت الحارس وصاحب المنزل بما حدث البارحة، ضحكا بتوتُّر وأكدا لي أنه لا يمكن التسلل إلى داخل لحي أبدًا، وأن مَن رأيتهم بالأمس هم جيراننا، مالك المنزل المجاور وأسرته، وأنني إن أردت الحصول على ما يكفي من الراحة والنوم فيجب عليّ محاولة النوم قبل أن يعود الفتية مساءًا، بل وحذراني من إثارة المشكلات ومحاولة التحدث لهم، والتدخل في شئونهم.

تركتهم والتساؤلات تنهش عقلي نهشًا، خصوصًا حين وصلت لأجد ذات الغرباء الثلاثة، وكما حدث بالأمس حدقوا بي حتى دخلت لمسكني، وما أن قاربت الشمس على المغيب حتى صدحت تلك الموسيقى مجدّدًا، شعرت بكل ذبذبة تسري عَبر جسدي، لم أستطع النوم، أو الدراسة، والأسوأ أن هذا الوضع امتد لأسابيع. كنت محظوظًا ببعض الأيام التي لم يشغلوا بها مكبرات الصوت واستطعت النوم بسلام، ولكن بالطبع لم يكن الأمر محتملًا.

وما زلت أتساءل لما كل ذلك؟ يثيرون الضجيج بشكل دائم، خصوصًا في الليل، ولم يكن الأمر مقتصرًا على الضوضاء، بل كان

هناك شيء أكثر إثارة للقلق. فبين حين وآخر تردد على منزلهم رجال غريبو الأطوار، يحملون أسلحة، ووجوههم لا تبشر بخير، والأغرب ألّا أحد من سكان الحي يعترض، بل تجنبهم الجميع تمامًا كما يتجنب العاقل الطاعون.

حاولت جاهدًا أن أحل المشكلة بطريقة سليمة، باستخدام سماعتي العازلة للضوضاء، ولكن سرعان ما تداعَى كل شيء حين حلت الاختبارات، وقد تدنت درجاتي، وقلّ تركيزي، وأصبحت أنام في كل محاضرة من دون أن أشعر. ومع تدهور أدائي الأكاديمي، كنت عصبيًا ومنهكًا. قررت ذات مساء أنه يجب أن أتحدث معهم بجِدية. جررت خطواتي ذاهب إليهم، وتلك الموسيقى الصادحة تهز جسدي أكثر كلما اقتربت من الباب الأمامي، رننت الجرس بعزم ووقفت بانتظار الردّ، وماهي إلا ثوانٍ حتى فتح الباب وانخفض صوت الموسيقى، رجل حسن المظهر استقبلني بابتسامة ودودة، لا بد من أنه صاحب المنزل، دعاني للداخل وتبعته بلا تردد.

بمجرد أن التقى المزلاج بإطار الباب وأحكم إغلاقه خلفي، سَرَت قشعريرة بجسدي لشعور بارد باغتني على رقبتي، وكردّ فِعل بديهي من جسدي رفعت يدي لتلتقي بطرف سكين حاد، تسبّب بجرح سطحي هناك. ثم شعرت بيد ضخمة على تخللت بين خصلات شعري وتثبتني حيث كنت، أكاد أقسم أنه كان سيقتلع رأسي من مكانه من دون حاجته للسّكين، نظرت بتوتُر تجاه صاحب المنزل وقد اتخذ مقعده أمامي وتغيرت تلك الملامح اللطيفة التي رأيتها منذ قليل.

قال ببرود

- اعتبِر هذا تحذيرًا. إذا أتيت إلى عتبة منزلي مرّة أخرى، فلن تغادر حيًا. وإذا كنت محظوظًا، فسوف تنجو مثل الذي يقف خلفك، لكنك ستدفع الثمن غاليًا»

تلعثمت بتوتُّر وكل ما خرج من لساني بنبرة مهزوزة كان..

- سأشتكي للشرطة!

انفجر الرجل بالضحك:

- ستشتكي لأصدقائي إذا؟ سأحب أن أرى ذلك.

ضحك أكثر، ثم قام الشخص الذي يمسكني بجرّي إلى الباب الذي دخلت منه، ودفعني بقوة لأسقط من أعلى درجات السلم. وصرخ في وجهي بنبرة مرعبة:

- اغرب من هنا!

نظرت إلى وجهه، فتملّكني الرعب.

وكل ما شعرت به بالداخل وتلك السكين مصوبة نحو عنقي لم يكن شيئًا، فما رأيته لم يكن طبيعيًا قَط، الرجل أو لنَقُل العملاق الذي كان يمسك بِي وقف في مكانه يحدق بي بملامح غاضبة جدًا، لكنها ليست المشكلة، بل نصف وجهه الذي كان مشوّهًا بالكامل، بل إنني أرى عظام وجهه بارزة من جبينه حتى أسفل فكّه الأيسر، وكأنه جُزّ من وجهه على الأرض ثم أشعلت النار به. منظر لا أتمنى رؤيته لألد أعدائي، تحاملت على نفسي وركضت نحو مسكني من دون أن ألتفت، أغلقت الباب خلفي وقدماي ترتعدان، ولم أستطع النوم تلك الليلة خوفًا من ذلك الرجل، وحارسه العملاق. عملت جاهدًا بعد ذلك

اليوم على تجنب النظر باتجاه منزلهم، لكن المشكلة استمرّت، وتلك الموسيقى صدحت بصوت أعلى من سابقة.

كانت أشهرًا من الجحيم، كل ما يسعني هو مراقبتهم من نافذة صغيرة في الكراج بغضب وخوف يتراكم في داخلي، ويصب من عيني. لاحظت بالأسابيع التالية لذلك الموقف شابة تردّدت للمنزل بشكل متكرّر، ولكن لم يبدُ وكأنها غريبة عليهم، ولم تَبدُ كأحد الزوار المشبوهين، فقد كانت تغادر المنزل كل صباح وتعود باكرًا ولا تتسكع بالخارج ليلا كحال البقية، ومِمّا فهمه عقلي خلال مراقبتها، أنها حاولت جاهدة أن تبقى متخفّية، وكأنها لم تُرِد الارتباط بأي إنسان كان بسبب ما يحدث في منزل أسرتها.

لاحت ببالي فكرة حين صادفتها ذات صباح تسير مُطأطئة رأسها باتجاه موقف الحافلات، أشرت لها حتى انتبهت لي، وتسارعت خطواتي لأسير بجانبها.

تحدثت لها بعفوية وكانت بالحقيقة أكثر لطفًا مما اعتقدت، تبادلنا أطراف الحديث بشكل عشوائي حتى إنني شعرت بالأسى لأجلها، فأسرتها مقيتة! خططت بتلك الثواني لاستغلال الفرصة حتى أطلب منها أن تتحدث مع عائلتها لتخفيف الإزعاج، قلت لها بعد مدّة من السّير حين لمحت الكتب الدراسية في حقيبتها:

- لا بد من أنك طالبة في الثانوية، وتعرفين أهمية الدراسة وخصوصًا العام الأخير، الامتحانات النهائية اقتربت، وكلانا بحاجة إلى التركيز، هل يمكنك أن تطلبي من والدك أو إخوتك تخفيف الصوت في الليل؟ لا تطفئوا الموسيقى إن أردتم، ولكن فقط

اخفضوها.

صمتت قليلًا وكأنها أحرجت من ذِكر هذا للموضوع وبادرت بِطمأنتها.

- لا تقلقي لست ألقي أي أحكام على أي منكم، كل ما أريده هو بعض الهدوء.

وافقتني وكأنها لم تُرِد التحدث بالأمر، واعتذرت بشدة لكونها بحاجة إلى الذهاب بالاتجاه الآخر من الشارع، ودّعتها حيث كنت، وأكملت طريقي أكاد أحلّق سعادة؛ لأنني أخيرًا حللت هذه المشكلة، وعلقت آمالًا كبيرة على العودة باكرًا من الجامعة، والدراسة بجد تلك الليلة.

وبالفعل، غدت إلى الكراج بوقت باكر، ولم أصدق أذنيّ حين سمعت صوت الموسيقى من مسافة بعيدة! وصلت محاولًا تبرير ما يحدث بعقلي، فلعلها لم تتحدث إلى أسرتها بعد! كانت للتوّ قد وصلت سيرًا على الأقدام وعبَرت من جانبي من دون أن تلقي بالًا لي، ذات الشباب الثلاثة أمام المنزل كعادتهم، ولكن هذه المرة سارت الفتاة باتجاههم ووقفت للتحدث معهم، شعرت بالغرابة فلعلها تخبرهم بحديثنا صباح اليوم، فنصبت ظهري وتهيأت للتحدث لهم في حال اضطررت إلى ذلك، وتحفّست أكثر حين نظرت لي في أثناء حديثهم والتفت الفتية معها.

لاحظت للمرة الأولى أنهم إخوة، كنت بانتظار أن تدعوني للتحدث لهم حين أشارت برأسها تجاهي، وسرعان ما تبدل ذلك ووقفت في مكاني أنظر لهم كالأبله حين شرعوا جميعًا بالنظر لي والضحك، لم

أسمعهم بسبب الموسيقى، ولكنني رأيتهم يتلوون من الضحك، عليّ! ثم ساروا معًا باتجاه منزلهم الصاخب.

شعرت بالغضب الشديد، كان عقلي مشتعلًا، ولم أستطع التفكير بأي شيء آخر، تلاعبت بي، بل جعلت مني أضحوكة! حاولت أن أنام، لكن الضجيج والغضب والإفراط بالتفكير منعوني، أشعلت سيجارة محاولًا تهدئة نفسي على الرغم من إقلاعي عن هذه العادة منذ زمن لكن من دون جدوى.

وهذه المرّة، رجحت كفة غضبي على خوفي وقررت أن أذهب وأواجههم وليحدث ما يحدث! تسللت ببطء حول منزلهم، لم أرَ أحدًا من خلال النوافذ المفتوحة بالطابق السُفلي، خصوصًا في مقعد ذلك الرجل صاحب المنزل. تسلقت عَبر النافذة، ودخلت، والسيجارة في فمي. ناديت، لكن لا أحد أجاب، صرخت بصوت عال، لكن لا أحد سمعني. نظرت إلى السيجارة في يدي، وراودتني فكرة شيطانية. ألقيتها على كومة من الأوراق كانت على الأريكة، لا أعلم ما الغاية التي طمحت لها، ولكن أردت أن أؤذيهم، أو أن أحذرهم! لا أدري.

المهم أنني غادرت مسرعًا بعد أن اشتعلت النيران في غرفة المعيشة خلال ثوانٍ. وقفت في الخارج مختبئًا خلف شجرة، منتظرًا أن تعمل رشاشات الماء أو إنذار الحريق، أو أن يهرع أحدهم لإخماد النار، لكن شيئًا لم يحدث. ارتفعت ألسنة اللهب أمام عيني، وخرج الدخان من النوافذ، عدت بخطوات مترددة بين الاتصال على الإطفاء أو أن أدع المنزل يحترق، فلا يبدو أن أحدًا موجودًا به الآن، هربت إلى كراجي، ودفعت الباب حتى أغلقته خلفي.

بعد لحظات، سمعت صراخ الجيران في الخارج، وصفارات سيارات الإطفاء والمسعفين. طُرق بابي، وطلب منّي أحد الجيران مغادرة المنزل بسبب الدخان. خرجت معهم، متظاهرًا أنني كنتُ نائمًا. بينما شاهدت رجال الإطفاء وهم يخمِدون النيران التي حوّلت المنزل إلى كتلة سوداء متفحمة.

سرَت الأقاويل بين الجيران عمّا حدث وشاركتهم الحيرة والخوف، وتظاهرت بالجهل، حتى انطفأت النيران تمامًا، وبدأ رجال الإطفاء يغادرون المنزل، وهم يخرجون الجثث واحدة تلو الأخرى، وكنت أعدّهم. الأب، الزوجة، الأبناء الأربعة، كان الجميع يشعر بالحزن والأسى، أمّا أنا فتملكني الخوف من أن يكون ضخم البنية قد نجا، وسيبلغ عنّي الشرطة أو.. الأسوأ من ذلك، يأتي للانتقام بنفسه.

سمعت أحد المسعفين يقول إنهم لم يتمكنوا من حمل الجثة الأخيرة من المنزل؛ فقد ذاب الجلد والتصق بالأريكة. كانت جثة الشاب المخيف ضخم البنية، وتركوه في مكانه.

أخبرت الشرطة الجميع أن يعودوا إلى منازلهم. عدت إلى كراجي، غسلت وجهي، رفعت رأسي لأنظر إلى المرآة وتجاعيد طفيفة تشكلت حول عيني حين ابتسمت.

كان كل ما أسمعه من الخارج هو الهدوء. لا موسيقى، لا صخب، هدوء تام. أدركت أنني تسببت في موتهم جميعًا، ولكن كان هذا ثمن السكينة التي فقدتها. لم أشعر بأي تأنيب للضمير. ابتسمت، على الرغم من أطرافي التي ارتجفت برعب منّي وكأنها لم ترد أي علاقة بصاحب هذه الملامح التي انعكست أمامي. قرأت مزّة مقولة

لكاتب يقول «إن الجميع قادر على فعل الشر» وأنا أصدّقه، لكن ليس الجميع قادر على التعايش مع ما ارتكبته أيديهم. اليوم هو اليوم الذي قابلت فيه الشيطان، الشيطان الذي بداخلي. كان يفترض بي أن أشعر بالأسف والندم، لكن كل ما أشعر به هو الهدوء والسكينة أخيرًا.

سعيد الوحيد

كان يمضي أيامه معقلًا بظلامٍ لا يراه أحد. يتنفس بصعوبة، وكأن الهواء نفسه يرفض الدخول إلى صدره، وكأن قلبه حجرٌ يثقل الحمل على جسده. كل صباح يفتح عينيه على جدارٍ رمادي، لا جديد، لا أمل، لا شيء سوى تكرارٍ قاتل. كان يشعر أن حزنه أثقل من جسده المنهك، وأن كل خطوة يخطوها هي معركة مع الجاذبية تجرُّه إلى الأسفل.

لم يَعُد يصرخ ويستغيث بمَن حوله فقد خذلوه واحدًا تلو الأخر، واتضح له أخيرًا أن كل قشة يتمسك بها، ستجره عنوة إلى القاع. حدث نفسه بصوتٍ مبحوح، كمَن يكتب وصيّته في الهواء ويأبى صوته أن يترك أثرًا:

- يومٌ آخرا عظيم. همهس في نفسه ضاحكًا من سوء حظه.

- لم أمت الليلة الماضية أيضًا، أنا متعب، متعب من هذه الحياة، ما فائدة وجودي المنعدم هذا؟ مَن سيفتقدني إن رحلت؟ لو متُّ.. لكان خيرًا لي، سأرتاح.

يمضي العالم من حوله كمسرح صاخب، تتراقص فيه تعابير الوجوه الضاحكة وتتشابك الأحاديث، بينما يقف هو خلف زجاج سميك، يراقبهم من بعيد، غريبًا عنهم وحتى عن نفسه. يسير مثقلًا بظل أسود يلتف حول جسده كالثعبان، يضغط ببطء على أنفاسه حتى صار التنفس شبه مستحيل. كل خطوة يخطوها ثقيلة، كأن الأرض ترفض حمله وتتمنّى سقوطه، وكم تمنّى هو أن تبتلعه.

تذكر حين استقال من وظيفته؛ لأنه لم يَعُد يحتمل، كانت أكثر اللحظات تحطيمًا له، لأنه كان يتقن عمله، مثاليًا به، حتى إنه كان موظف الشهر لمُدّة طويلة، كانت تلك آخر ذِكرى يحملها ويتذكر أن وجوده كان محوريًا لأحدهم، حتى وإن كان أحدهم هو عمله.

سرعان ما تحطمت تلك الذكرى حين تذكر إخبار مديره برغبته بالاستقالة وكان ردُه:

«لقد أحزنتني بخبرك هذا يا سعيد.. متى ستوقع على الاستقالة؟» يا للسخرية.

يتذكر أنه صمت يفكر ويسألهم في نفسه، كيف لكم ألا تروني؟ كنت أصرخ طالبًا النجدة كل يوم، صرخت بمظهري، صرخت بتدهور صحتي وعقلي وحالتي النفسية، لم يكن أحد يسمع، وإن سمعوا لم يكترثوا.

بأحد أشد أيام الصيف قيظًا، كانت أشعة الشمس كأصابع نار تحاول اختراق جلده، بينما الهواء الساخن لفح وجهه كأنفاس شيطان يائِس لم يجد سبيلًا ليروي ظمأهُ سوى بحبيبات عَرَق سالت على جبينه.

أخذته خطواته أمام مقعدٍ قديم ومتهالك، يشاركه ذات إحساسه بالوحدة، ولافته وضعت فوقه استوقفته، وبقي هناك ليتأملها لعدة دقائق

«اجلس هنا.. إن لم يكترث أحد لاختفائك».

تجمّد في مكانه، وحدّق فيها طويلًا، كمن عثر أخيرًا على مرآة

تعكس واقعه، كانت الشياطين تهمس في رأسه «هذا مكانك» ارتجف قلبه لأول مرّة من زمن طويل، إذ شعر وكأن هناك مَن خاطبه أخيرًا، استسلمت قدماه لتلك الجاذبية التي قاومها منذ استيقظ، ثم ابتسم ابتسامة باهتة، أخيرًا هناك مَن رآه.

اقترب، جلس، أغمض عينيه، وغاب.

***

استلقى طفل صغير على السرير، موصولًا بالأنابيب، فيما كان الأطباء يهمسون حوله.

اقترب الأب، وأمسك بيد ابنه، وبكى، بكى بكاء شديدًا؛ لأنه كان مستعدًا لفعل أي شيء لينقذ حياة ابنه، وأثبت ذلك حين أنفق جميع مدخرات حياته في السوق السوداء على أمل، كان ضئيلًا جدًا بالنسبة له.

ذلك المقعد لم يكن ملاذًا للنجاة، يلوّح بلافتته التي لم تكن رسالة إنقاذ، بل كانت طُعمًا مثاليًا لقلب وحيد.

اختفى سعيد، ولم يكترث أحد لاختفائه، سوى فخ الأب الذي أراد حصد قلبه، ليُحيي به طفلًا يستعير نبضه الأخير منه.

أردنا تحذيرك، ولكن لَم نُرد إفساد مزاجك، لَم نطلب منك قراءة هذه القصص، وَلَم نجبرك على تحمُّل مرارة أحرفها وصفحاتها واحدةً تلو الأخرى.

ما نحاول قوله يا أيُها القارئ..

إنّ نوايانا كانت مسالمةً كشجرةٍ مالث بغصنها لعابر سبيلٍ، رأى اعوجاج الغصن فثناهُ لإقامته فانكسر، أراد إصلاحه وما أراد الغصن إلا أن يمدّ الظلّ له.

«النّهايةُ»